

أقسم من الموت

عندما يكون شيطانك رحيمًا

ساحر الكتب
للنشر والتوزيع

تدور أحداث هذه الرواية في مدينة بور سعيد، وجميعها وجميع الشخصيات من وحي خيال المؤلف، ولا صلة لها بالواقع.

إهداء

إهداء لصاحبة العيون الضيّقة التي سرقت قلبي بنظراتها وحبست أنفاسي بلمساتها.

إهداء لمن فغر فاهي عندما رأيتها وتبدّلت الدماء في عروقي خمرًا فثمل قلبي من ضياء حسنها الفتّان.

إلى عصابة الأشقياء

هادي، إياد محمد عصمت

يوسِف، سيف أحمد مجدي

تاليا أحمد عصمت

مليتوا حياتنا فرحة، وشقاوة، وسعادة

ربنا يخليكم لينا

الدنيا مكانش لها طعم من غيركم.. وبقى لها ألف طعم بوجودكم.

إلى والدي ووالدتي

أصحاب كُلِّ فضلٍ وأيّ فضلٍ في أيّ شيءٍ وصلت له

شكرًا لكما.. شكرًا حتى ينتهى هذا العالم

وإن كان كُلّ هذا لن يوفّيكما حقّكما...

شكرٌ لابُد منه

واعتراف

كان لابُدَّ من تخصيص شُكرٍ خاصٍ به، على مدارِ سنواتٍ طالَت وأرجو من الله أن تطول أكثر..

كان بجواري دومًا، يساندني ويدعمني دعمًا غير مشروط وغير محدود..

كان له كثير الفضل بعد الله في خروج الروايات بهذا الشكل..

لطالما نصحني نصائِح لا تقدَّر بثمنٍ أثرت من النصوص المكتوبة وجعلتها أكثر عمقًا وإحكامًا..

صديقي العزيز/ باسم الخشن

شكرًا..

لولاك ما كانت أشياء كثيرة!

دُمت ودام وجودك

إهداء

لكُل من سرقهم الفقد منَّا وتركنا مُلغَّمين بأحزانٍ لا تنفجِر وقلوب أثقلها الألم

لم ننساكم

ولن ننساكم...

سيطر الظلام على كُلِّ شيءٍ، بدا المكان مهجورًا، ساد الصمت إلّا من صوت أنفاسي، دنَّس صوت دقات قلبي طهارة الصمت، حاولت أن أهدّئ من روعي، خصوصًا وأنّ ذاكرتي قرَّرت أن تنسحِب لتجلِس هلِعَةً في ركنٍ مُظلِمٍ من أركان روحي وقد انثنت على نفسها وبدأت تبكي في خوف، لا أدري لوجودي هنا سببًا، لكنّني تعلَّمت أنْ لا شيء يحدُث دون سببٍ في دنيانا، ابتلعت ريقي.. فبدا صوته أعلى من صخب نادٍ ليلي تحتلّه جماعةٌ من المُراهقين الثملين، اهتزّ جسدي في قشعريرة خوفٍ، سَرَت موجةٌ من البرودة في كامِل أنحاء جسدي، أنا هنا لسببٍ.. فما هو؟

لن تأتيكِ الإجابات يومًا وأنتِ تقفين في مكانكِ مكتوفة الأيدي! عليكِ أن تتحرَّكي بحثًا عنها! لكن.. هل من الآمن سبر أغوار مجهولٍ لا تعرف حدوده ولا قواعده بحثًا عن إجاباتٍ لأسئلةٍ لا تعرف مدى إفادتها في هذا الموقِف؟

لكن.. أتُراني أملك خيارًا آخرًا؟

تأقلَمت عيناي على الظلام قليلًا، واتّخذ قلبي من الهدوء وليفًا، ابتلعت ريقي مرّةً أخرى وأنا أتحرَّك للأمام، تذمَّرت الحصى تحت قدميّ فعبَّرت عن انزعاجها بتدحرجها فوق بعضها البعض في ضوضاءَ غير صاخِبةٍ، أو ربّما جعلها صوت دقَّات قلبي العالي تبدو خجِلة قَلِقة، أطلقتُ زفيرًا

طردت فيه القليل من خوفي وأنا أتجاهل صوت الضوضاء غير الخطيرة التي أتسبَّب فيها مع كُلِّ خطوةٍ أقرِّر أن أسيرها في طريقي، طريقي نحو..

نحو إجابةٍ أستقصيها لسؤالٍ لا أعرِف مدى فائدته حقًّا..

يبدو المكان هنا مثل..

مثل قصرٍ مهجورٍ، ربّما كانت مدرسةً، أو.. مصحّةً نفسيّة؟

أنت مفصلّات بابٍ صدِئة وأنا أمُرُّ بجوارها، وكأنّها تُعلِن لي عن وجودها، قفزتُ وجِلةً خوفًا من صوتٍ شقَّ حرم الصمت شقًّا، نظرت للممرِّ غيرِ المُمهَّد عن أمامي، الحائِط المشقوق عن يميني، والباب الذي ملَّ الإغلاق ففُتِح من تلقاء ذاته، حسمت أمري، مددت يدًا مُرتعِدة ودفعت خشبه البارد بقوةٍ، ربّما افتعلتها لأخفي هلعي، أنَّت مفصلاته بصريرٍ خافتٍ وهي تدور لتفتح لي بابًا يخفي خلفه غُرفةً مُظلمةً، تنفَّست بعُمقٍ، دلفت إلى الغُرفة ونظرت من حولي.

كانت غُرفةً متوسطة الحجم، حوائطها مُشقَّقة وكأنَّ المكان اتّخَذَ من التهدُّم سمةً يتمسّك بها، كانت الأرض كغيرها من أرضيّات هذا المبنى مُغطاةً بحصىً صغيرةٍ مكسورةٍ تتدحرج فوق بعضها البعض دون اكتراث، هناك نافذةٌ على الحائط الأيسر تبدو سليمة، وعلى اليمين تحتّل سبورةٌ ضخمةٌ نصف الحائط، بعض المقاعد والمناضِد

الخشبية مكوَّمةٌ فوق بعضها البعض في إهمالٍ في أحد الأركان، تقدَّمتُ خطوةً أخرى للأمام وأنا أنظر للسبّورة.. فارِغة وإن بدت مُنهكةً من أثر الاستعمال والمحو، ترى هل تشعُر الجمادات مثلنا؟

يبدو أنّها مدرسةٌ بعد كُلِّ شيء!

تشجَّعت عندما لم أجد ما يمنعني أو يردعني عن التقدُّم، فأخذت خطوةً أخرى نحو النافِذة، هل ستَحُلُّ نظرةٌ منها لُغز المكان الذي وجدت نفسي فيه؟ وإن حدث ذلك.. هل سأعرِف سبب وجودي هنا؟ لا أظُنُّ ذلك!

لكن لِنَحُلَ لُغزًا واحدًا في المرّة!

خطوةٌ أخرى ووجدت نفسي في مُنتصف الغُرفة تقريبًا، فجأةً.. أُغلِق الباب بصوت دويٍّ عالٍ، ارتجف جسدي وسرت انتفاضة خوفٍ في عروقي، نظرت من خلفي.. لكنّني لم أجد سوى ظلامٍ قرَّر أن يكون أكثر إعتامًا من ذي قبل دون سببٍ مفهومٍ، وخوفٍ ملَّ وحدة قلبي فقرَّر سكنى عروقي بحثًا عن ألفةٍ قد يجدها فيها، اقتربت من الباب بخطواتٍ بطيئةٍ، مَدَدْتُ يدًا انتهكتها الرعشة نحو مقبض الباب، سأحاول فتحه.. لا لشيءٍ، لمُجرَّد الاطمئنان لكوني لست حبيسةً هنا، من الجيد أن أعرِف أنَّ لديَّ طريقًا لأسلكه في حال أردت الهرب.. حتى لو لم أضطَّر لذلك، كان المقبض بارِدًا.. بارِدًا كدماء قاتِل آثِمٍ.

لكن هل كُلُّ القتلة آثمين؟

أدرت المقبض فدار ذاعِنًا في يدي، فُتِح الباب، ودون سببٍ مفهوم.. استكان قلبي وهدأت روحي قليلًا، بحثتُ بعينيّ قليلًا عن شيءٍ أطلب مُساعدته في إبقاء الباب مفتوحًا، لم أجد سوى قطعةٍ من حجرٍ ضخمٍ تستكين أرضًا في راحة، أمسكتها بيدي ووضعتها لتمنع الباب من أخذ قراراتٍ مُفاجئةٍ لا طائِل منها، اطمأنّ قلبي قليلًا لخضوع الباب، عُدت أستكمِل مسيرتي، بقدمين تجادلانني في جدوى ما نفعل، نحو نافذةٍ ستكشِف لنا المجهول، لكن هل يحمل لنا المجهول دومًا حلولًا نبحث عنها؟ أم تُراه سيُضيف لنا المزيد من الألغاز؟

للمرّة الثانية.. يُغلَق الباب بدويٍّ هائلٍ صمَّ أذنيَّ وقفز قلبي معه هلعًا، نظرت من خلفي ثانيةً بحثًا عن حجرٍ خائنٍ طلبت مُساعدته فخذلني، لكنّني لم أجده، وكأن لم يكُن، ربّما انصهَر خجلًا إلى حصىً صغيرةٍ ذائبًا في آلاف حبّات الحصى التي ملأت الأرض، هذه المرّة لم أتراجَع إلى الباب.. عالمةً وأنّه لابُدَّ أن يكون مفتوحًا، استكملت مسيري نحو النافِذة، عقلي يدور كماكينةٍ ضخمةٍ دون توقُّف، حتى لأكاد أسمع صوت تحطُّم الأفكار الضعيفة وتروس الحكمة والمنطق تهرسها دون اكتراث.

قبل خطواتٍ من وصولي لنافدة الحقيقة، سمعت صريرًا جمَّد الدم في عروقي، صرير طبشورٍ فوق سطح سبّورةٍ،

توقّفت في مكاني والعرق البارِد يملأ جبهتي، يرتجِف جسدي دون توقُّف، تنتصِب شعيراته في خوفٍ مُبرَّرٍ، نظرت بطرف عيني ورأيته، طبشورًا يُسرِع ركضًا فوق سطح السبّورة تاركًا من تحته أثرًا أبيضَ اللون، حروفٌ عشوائيّةٌ تتكوَّن، وكلماتٌ غيرُ مفهومةٍ تولد، جُملٌ لا معنى لها تتراصّ خلف بعضها البعض، وفقراتٌ مُبهَمةٌ تُرسَم تباعًا!

شعرت بالخوف يمدُّ يده ليُهشِّم رأسي من الداخِل، دقّاتُ صداعٍ حادٍّ تنتهِك رأسي، ضغطٌ عالٍ يعتصِر عيني اليُسرى، وريقٌ جفَّ خوفًا ليترك حلقي قاسياً كقلب خاطِفة أطفال!

حاولت أن أفكَّ ألغاز ما كُتب على السبّورة.. لكن دون جدوى!

لا أعرِف هل فعلًا لا تحمل تلك التراكيب اللغويّة الغريبة أيّ معنىً! أم أنَّ عقلي قرَّر التوقُّف عن العمل وانزوى باكيًا من شدّةِ الرُعب بجوار ذاكرتي!

وقبل أن أفهم ما يحدُث! أو أعي ما يدور!

سمعت صوت الدقّات المكتومة، بالتأكيد لم تكُن دقّات قلبي هذه المرّة، أظنّه استسلم خوفًا وأصبح يخشى النبض، التفتُّ نحو مصدر الصوت.. كانت النافِذة!

أمطرت السماء بغزارة وكأنّها تبكي فقيدًا رحل وترك مرارةً لا تزول، لكنّها لم تُمطِر مياهًا صافيةً كعادتها الأثيرة، أمطرت وحلًا لزجًا، تساقط على النافِذة وتمسّك بها في

تشبُّث، أبى أن يسقط بسهولةٍ أو أن تتهشَّم حبّاته عليها، استمرَّت حبَّات المطر تتساقَط في سُرعةٍ لتُغطّيَ النافِذة كما غطّى الهلع قلبي وملأ روحي، إلى أن ملأها تمامًا، فتحوَّلت من نافذة شفَّافة تكشِف ما خلفها، لجدارٍ من الوحل الداكِن يغطي كُلَّ ما خلفه، لكن هل غطّاه خوفًا عليّ؟ أم تآمرًا مع الكون ضدّي؟

نظرت إلى السبّورة مرّةً أخرى، لا تزال تلك الجُمل الغريبة تملؤها، وإن أصبحت الآن ذات معنىً مفهومٍ بعض الشيء، حاولت قراءتها:

(أنـــــــــــــا الآتِ مـــــن سقـــر لأحيل حياتــــــكِ جحيمًا.

ها أنــــــــــــا ذا هنا.. فهل تجرئين على الوقوف في طريقي.

ربّما ظننتِ أنـــــــــكِ لي ندًّا، لـــــــكنّكِ فــــانيةٌ ضعيفة.

باسم كُلّ من خُلِق من نارٍ أقسم لكِ أن أحوِّل حياتكِ لكابوسٍ.

يا أيّتها الفــــــــــــــانية.. لتعيشي مصيرًا أقسى من الموت!)

هل يبدو الأمر كتهديدٍ صريح؟ هل هو موجّهٌ لي؟

بالطبع كان هذا سؤالًا غبيًّا! لا يوجد أحدٌ هنا سواي!

نظرت للباب بطرفِ عيني، وكأنّني أتأكّد من أنّه لم يهرب ويتركني حبيسةَ تلك الغُرفة المُخيفة، كان لا يزال في مكانه، وإن بدا مُختبئًا في عتمة الظلام خوفًا ممّا يحدُث، شعرت بحركةٍ خافتةٍ عن يساري، التفتُّ سريعًا وأنا أتراجَع خطوةً للخلف، لكنّني كُنت لا أزال وحيدةً في الغُرفة، وإن بدأ الوحل يتحرَّك فوق زجاج النافِذة الخارجيِّ، وكأنّما بُعِث ونُفِخَت فيه الروح لتوّه، بدأ يُزيِح بعضه بعضًا وهو يتلوَّى ليترك بعض الأماكِن دون وحل، لكن هل.. هل هذه حروف؟ هل هذه كلمةٌ تتكوَّن؟

بدأ يتقلَّب بيدٍ خفيّةٍ كتلك التي تُمسِك قلبي لتعتصره من شدّةِ الخوف، بدأت الحروف تتكوّن على النافِذة من الخارِج!

(ا.. هـ.. ر.. بـ.. ي)

اهرَبِ!

أهرَبْ!

سمعت صرير الطبشور مرّةً أخرى، نظرت عن يساري نحو السبّورة لأجد الكلمات تلتحِم ببعضها البعض، تتآكل كثعابين تبتلِع بعضها البعض دون توقُّفٍ، تَقْصُرُ الجُمل وتفنى الحروف لتترك الكلمات الأولى فحسب على السبورة

(أنا.. ها.. ربما.. باسم.. يا)

ليست جُملةً مفهومة! لا معنى لها!

بدأت المسافات بين الكلماتِ تتضاءل وتلتصِقُ ببعضها البعض لتكوِّن كلمةً واحدةً.

(أناهاربماباسميا)

لا تزال كلمةً دون معنى، إلى أن بدأت كُلُّ كلمةٍ منها تفقد حروفها الزائدة واحدًا تلو الآخر.

(أنهرلبامي)

أنهر لبامي؟ ما معنى هذا؟

بدأت الحروف تذوبُ في بعضها البعض.. هذه المرّة كانَت الكلمة واضِحةً والرسالةُ مفهومة!

بقي على السبّورة أمامي أول حرفٍ من كُلِّ كلمةٍ، بل في الحقيقة.. أولُ حرفٍ من كُلِّ جُملةٍ كُتبت من قبل!

(ا.. هـ.. ر.. بـ.. ي)

اهربي!

هذه المرّة لم يكُن في نيتي انتظار رسائلَ أخرى، ركضت نحو الباب في سُرعةٍ، شعرت الحصى تحت قدمَيَّ بفزعي ففرَّت هاربةً، تعثَّرتُ أكثرَ من مرّة، لكنّني تماسكتُ ولم أسقط، وصلت إلى الباب وأنا أنشُج بعُنفٍ، لم أستطِع

التنفُّس بشكلٍ صحيحٍ، يكاد قلبي يتوقَّف خوفًا، بل أكاد أتمنى لو يتوقَّف حتى ينتهي هذا الكابوس المُرعِب!

أمسكتُ مقبض الباب وحاولت فتحه! لكن من خان مرّةً.. يخون آلاف المرّات!

أبى الوغدُ الخشبيُّ أن ينصاع فيُفتَح، تمسَّك بموقفه في ثباتٍ لم أتمناه يومًا، حاولت أن أديره مرّةً تلوَ الأخرى.. لكن دون جدوى.

سمعت صوت الخطوات من خلفي، تدحرُجُ الحصى فوق بعضها البعض ليُخبرني أنّ ثمّةَ من يقترِب من خلفي، تجمّد الدم في عروقي وأنا أترك مقبض الباب، شلَّني الخوف للحظاتٍ إلى أن أدركت أنّني يجبُ أن أنظُر خلفي!

سمعتُ صوته يقول: «لن يُفتَح»

بدا الصوت مألوفًا، وإن منعني الخوف من إدراك صاحبه على الفور، انتابتني قشعريرةٌ قاسيةٌ جعلتني أشعر بالألم بعد انتفاضِ جسدي بهذا الشكل، لكنَّ ألفة الصوت جعلتني أنظر خلفي في تردُّدٍ!

وكان هذا أسوأ قراراتي على الإطلاق!

لأنّني بمُجرّد أن التفتُّ لأنظر خلفي.. وجدته ينتظرني!

***

(١)

شهقت وهي تستيقظ من نومٍ اصطَبغ بالقلق، لم تعرِف للنوم العميق طعمًا منذ وقتٍ طويل، تتناوَب الظروف والضغوط النفسيّةُ لمنعها من أن تحظى بنومٍ هادئٍ، حتى لظنّت أنّها لن تذوقه ثانيةً، وعلى الرغم من اعتدال الجو - على عكس حياتها - إلّا إنّ جسدها كان مُغطىً بحبّات العرق التي ألصَقَت رداء نومها القصير بجسدها البضّ الفتّان، مسحت جبهتها بباطِن يدها قبل أن تتأمّل الماء المالِح الذي ملأها، وأزاحَت عدّة خصلاتِ شعرٍ تسلّلت لتلتصِق بجبهتها بفعل العرق، عدّلَت من وضع حمّالتي رداءها اللتين سقطتا على كتفيها المليئين بالنمش الفاتِح، وهي تمُدُّ يدها نحو الكومود الصغير الساكِن بجوار فراشها بحثًا عن كوب ماءٍ يبتغيه حلقها الجافُّ، كان الكوب قد أوشَك على الانتهاء، لكنّ ما فيه كان كافيًا لريِّ ظمأٍ أصاب حلقها فجفّفه، وجعل عملية البلع أكثر صعوبةً.

لكنّها ابتغَت المزيد واشتهت الكثير، فاعتدلت على الفراش وهي تُحارِب موجات الكسل التي أمسكت بجفنيها لتدفعهما للأسفل بحماسٍ لا يكلّ، كما قاوَمت دقّات الألم الناتِجةِ عن الصداع اللّعين، فكّرت في غير اكتراثٍ قبل أن تكتشِف أنّها لم تتناول دواء الضغط العالي الخاصّ بها منذ أيامٍ ثلاثة، بحثت بقدميها بعينين نصف مفتوحتين عن حذاءِ البيت المصنوع من فراءٍ ورديّ اللون، وجدت واحدةً لكنّها

لم تجد الأخرى، وقفت رغمًا عنها وهي تكبح جماح لسانها الذي تجمَّعت بضع سبَّات على طرفه، لمحت الأخرى وقد حاولت الهرب بعيدًا والاختباء تحت الفراش، فمدَّت قدمها وسحبتها نحوها لترتديها، وطفقت تتحرَّك بعد أن استشعرت دفء الفراء على قدميها.

تحرَّكت دون وعيٍ حتى وصلت للمطبخ، فتحت صنبورَ الماء، ودفعت بالكوب الزجاجيِّ الطويل تحته، انتظرت قليلًا حتى امتلأ وفاض فوق يدها، فأغلقته سريعًا وهي تتأفَّف، وضعته على منضدةٍ صغيرةٍ احتلَّت أحد أركان المطبخ واستدارت تمدُّ يدًا ترتعِد لتتحسَّس الموجودات فوق ثلاجةٍ تهدر في صمتٍ، وجدت ضالّتها.. صندوقٌ صغيرٌ من البلاستيك تستقِّر بداخله بقايا أشرطةٍ وزجاجاتِ أدويةٍ مُختلِفةٍ، بحثت بينها لثوانٍ قبل أن تلتقِط شريطين مُختلفين، شريطُ دواءٍ لمُعالجة الضغطِ العالي بقيت فيه حبتان، عليها أن تتذكَّر أن تشتري آخر، وشريطُ دواءٍ مُسكِّنٍ للآلام بقيت فيه حبةٌ واحدة، وضعت الحبتين بعد أن استخلصتهما بعُنفٍ من الشرائط وهي تلقيها في صندوق الأدوية مرّةً أخرى على الرغم من أنَّ أحدهما فارِغٌ لا طائل من الاحتفاظ به، لكنّها لم تكُن جيّدةً يومًا في حفظ أسماء الأدوية المُعقَّدة، وضعت الحبتين في فمها وسارت نحو المنضدة الصغيرة، غمرتهما بسيلٍ من مياهٍ بارِدة حتى اطمئنَّت أنّها قد ابتلعتهما بأمانٍ، تركت الكوب بعد أن

رمقت الحوض المُمتلئ بالصحون المُتّسِخة والأطباق القذرة بنظرةٍ اشمئزازٍ حادّةٍ.

خرجت من المطبَخ لتلقي بنظرةٍ خاطفةٍ على ساعة الحائط المُعلَّقة في الممرِّ، ما زالت تملك من الوقت ساعتين قبل أن تذهَب للعمل، قرَّرت أن تعود للمطبخ مرّةً أخرى، بحثت بين الأكواب القذرة حتى وجدت أقلها قذارةً، غسلته بقليلٍ من الماء، كانت تعلم يقينًا أنّه غير كافٍ لتنظيفه، لكنّها اكتفت بهذا القدر في تكاسُلٍ عظيمٍ، أفرغت نصف زجاجةٍ في غلّايّة ماءٍ كهربائيةٍ، وأفرغت كيسًا من القهوة الجاهزة سريعة التحضير في الكوب، لم تُضِف السُكَّر، فهي لا تُحبّه ولا تستسيغ طعمه، صبَّت الماء المغليَّ داخل الكوب، بحثت في الحوض عن ملعقةٍ قلَّبت بها المزيج دون أن تنتبِه لقليلٍ من صلصلة الطعام كان يتمسَّك بها قبل أن يذوب في الكوب، رشفت منه رشفة وعلامات الألم تظهَر على محياها بسبب سخونته العالية قبل أن تتّجِه لشرفتها.

فتحتها فهاجمتها أشعَّةُ الشمس بضراوةٍ لتغمُر وجهها المصبوغ بالكسل والنوم، أغلقت عينيها قليلًا وهي تضع الكوب على منضدةٍ بلاستيكيّةٍ صغيرة كانت تنتظرها في الشُرفة، جذبت المقعد البلاستيكيَّ لتُقرّبه نحو المنضدة وهي ترمُق النبتة الصغيرة التي اصفرَّت جوعًا وذبلت عطشًا، لكنّها تجاهلتها تمامًا وهي تجلس على المقعد، حدَّقت في السماء الصافية واستنشقت هواء الصباح الصافي

المليء بالندى، قرَّبت الكوب من أنفها واشتمَّت رائحةَ القهوة سريعة التحضير، التي حفَّزت ذاكرتها على تذكُّر بضع أشياءَ تمنَّت لو نسيتها تمامًا، وأشياءَ أخرى تمنَّت لو مُسحت من ذاكرتها مسحًا.

تنهَّدت في حُزنٍ وقد بدأ قلبها يعتصِر غمًّا، قلَّت دقَّات الألم التي أصابت رأسها وإن لم يفقِد الصُداع تأثيره بعد، شعرت بعينها اليُسرى ترتعِد من أثر الضغط العالي، ابتلعت مرارة الفقد والحُزن مع ريقها وهي تمدُّ يدها لتُمسِك بالكوب، تجاهلت أنّاتِ أصابعها من فرط الألم الذي أصابها حين أمسكت الكوب الساخِن، رشفت رشفةً سريعةً قبل أن تضعه أمامها، مدَّت يدها لتمسح دمعة تسلَّلت من عينها اليُسرى، اختلط عليها الألم فلم تعرِف هل هي دمعة حُزنٍ أم دمعة ضغطٍ عالٍ، لكنّها مسحتها على أيِّ حال وهي تهمس: «أين أنت؟ ألم تَعِدْني أن تبقى موجودًا للأبد كي تربّتَ على كتفي كُلّما احتجتك؟»

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تقول: «أوحشتني يا أبي!»

***

من يشعُر بالحُزن أكثر؟ هل هو الميت الذي انقطعت سيرته من الدنيا؟ أم أحبّاؤه الذين سيعيشون أيامهم من بعده؟

لماذا لا يتوقَّف الكون عن الدوران بعد وفاة أحد أحبائنا؟ كيف يضحَك البشر؟ كيف تُشرِق الشمس؟ كيف تدور

الأرض حول محورها من الأساس؟ لماذا لا يموت البشر كمدًا؟ لماذا لا تغرَق الأرض في حُزنٍ مُعتِمٍ؟ لماذا لا يشعُر الآخرون بوجعنا وآلامنا؟

أفاقَت من حُزنها على صوت رنين هاتِفٍ لحوحٍ لا يعرف الصبر، مشت بتكاسلٍ حتى وصلَت إلى الهاتِف، ألقت نظرةً لا مُباليةً على ابنها الذي طفق يلعب بالمكعّبات دون أن يبدو عليه الاهتمام بصوت الرنين المُزعِج، رفعت السماعة بغير اهتمامٍ ووضعتها على أذنها وهي تقول: «مرحبًا؟»

أتاها صوتٌ تعرفه جيّدًا، سألها في محاولةٍ بائسةٍ للتظاهُر بالمرح: «مرحبًا.. مرحبًا يا ريم، هل أتّصل في وقتٍ مُناسبٍ؟»

جلست على الأريكة المجاورةِ وهي تضع ساقًا فوق الأخرى، قالت في ودٍّ بالغٍ: «كُلُّ الأوقات مُناسِبةٌ من أجلك»

ضحك المُتّصل وقد أعجبته الإجابة، قال في قليلٍ من التخوُّف: «خشيت أن أضايقكِ باتصالي أو عند سماع صوتي!»

قالت وهي تنظر لابنها وتفرقع بأصابعها في محاولةٍ لجذب انتباهه: «لا تقُل هذا يا محمود من فضلك، على الأقّل احترامًا للأيام الجميلة التي قضيناها ونحن متزوجين، الانفصال لا يعني نهاية علاقتنا»

قال وهو يتنهّد بارتياحٍ: «لطالما خشيت ما بعد الطلاق، خشيت أن تصبغ الذكريات السيّئة أيامنا فتنسينا حلاوة ما قد فاتَ ومرّ»

قالت وهي تبتسِم: «لطالما كُنت نعم الزوج، والآن ها أنت ذا.. نعم الصديق»

قهقه ضاحكًا وهو يقول: «ما زلتِ لصّةً وتسرقين بدايات جُملي كعهدكِ يا ريم»

قهقهت ضاحكةً بدورها، قبل أن يُباغتها بسؤالٍ جديدٍ: «ما أخبار العمل الجديد؟»

قالت دون شرح أو تفسير: «الحمد لله»

الحمد لله على كُلِّ شيءٍ طبعًا، لكن الإجابة لم تُرضِ فضوله، فقرَّر أن يُعيد صياغة السؤال قبل أن يطرحه: «هل أنتِ بخير؟ هل كُلُّ شيءٍ على ما يُرام؟»

فهمت ما يرنو له، فقالت باقتضابٍ مرّةً أخرى: «الحمد لله، على خير ما يُرام»

لطالما كَرِه إجاباتها المُقتضبة عندما يسعى خلف إجاباتٍ مُفصَّلة، لكنّه تمالَك أعصابه، لا فائدة من اللوم بعد فوات الأوان، وبعد الطلاق لا يجوز العتاب، قال في يأسٍ: «حسنًا، أتمنى أن تكوني دائمًا بخيرِ حال، وأريدكِ أن تتذكري أنّني هنا دائمًا من أجلكِ، إذا ما احتجتِ أيّ شيءٍ،

حدثيني فحسب»

قالت في ودٍّ: «ربنا يخليك يا محمود، هذا العشم»

وعلى الرغم من أنّها لا تراه، إلّا أنّها كانت تعرفه جيدًا، ورأته بعين عقلها وهو يبتسِم قبل أن يقول: «اللّهم أدِم بيننا الودَّ والمعروف»

قالت في تضرُّعٍ: «يا رب، اللّهم آمين»

قال فجأةً: «حسنًا، أعلم أنّ لديك العديد من الأشياء التي تحتاجين لفعلها، سأتركك الآن كي تبدئي يومك بسلامٍ، مع السلامة»

صمتت قليلًا، على ما يبدو أنّ تلك الجُملة لم تنل إعجابها أو لم ترقَ لمستوى جُملةٍ أخرى كانت تتمنّاها أو تنتظرها، حسمت أمرها وهي تقول في لومٍ صبغه الغضب: «هذا كُل شيء؟»

سألها في دهشةٍ وهو لا يعلم ما تخفيه خلف سؤالها المُبهَم: «هل تريدين شيئًا ما يا ريم؟»

استاءت لتظاهره بالدّهشة، بالتأكيد يعرف ما تقصد، وبالطبع يعرف ما تُريد، لكنّه يعشق التظاهُر بالجهل، وهذه كانت من أكبر خلافاتها معه دومًا، أنّه يعرف.. فيُنكِر المعرفة، قالت في غضبٍ: « أبدًا، تعجّبتُ فقط من سؤالِك عن كُلِّ تلك الأشياء دون أن تسأل عن ولدك الوحيد! هل

ستُنهي المُكالمة قبل أن تطمئنَّ على عادل؟»

طال صمته طويلًا حتى ظنَّت أنّ الخط قد انقطع كحبل زواجهما، لكنّ صوته سُرعان ما عكَّر الصمت وهو يقول في تثاقُل: «حسنًا، لا أريد التحدُّث في هذا الأمر في الوقت الحالي يا ريم، وفقكِ الله في عملكِ الجديد وفي كُلِّ ما هو قادِم، ولا تنسي من فضلك.. أنا هنا دومًا من أجلكِ، مع السلامة يا ريم.»

أغلق المُكالمة قبل أن تتمكَّنَ من الردِّ، كعادته حينما لا يرغب في القيام بشيءٍ، يهرب فحسب، وضعت سماعة الهاتف فرفَع عادل - ابنها - رأسه وهو يقول في دهشة: «هل لم يطلُب منكِ بابا أن يتحدَّث معي؟ هل هو غاضِبٌ منّي؟»

ارتبكت قليلًا قبل أن تنحني لتجلس على ركبتيها إلى جواره وهي تقول: «لا يا صغيري بالطبع، لكنّه مشغولٌ قليلًا في عمله، والآن.. هل تريد تناول طعام الإفطار؟»

صرخ عادل في فرحةٍ طفوليّةٍ لا تتناسَب مع السؤال الذي سألته، لكنّها ابتسمت على أيِّ حال وهي تنهض لتُعدَّ طعام الإفطار، فخلال ساعةٍ من الآن.. سيكون عليها أن تتواجَد في مكانٍ ما..

تحرَّكت وهي تُدندن أغنيةً لمحمد مُنير بصوتٍ خفيضٍ:

«وفينك..

بيني وبينك أحزان ويعدوا

بيني وبينك أيام وينقضوا

بيني وبينك أحزان ويعدوا

بيني وبينك أيام وينقضوا»

***

صفَّت سيارتها الصغيرة أمام المبنى الخاص بالسجلِّ المدنيِّ، راقبت زحام الداخلين والخارجين من المبنى، وراقبت زحام المشاعر على ملامحهم، ما بين ضيقٍ وتأفُّفٍ حين الدخول، وراحةٍ وابتسامٍ عند الخروج، يكرهُ الجميع المصالِح الحكوميّة على الرغم من تعب الموظّفين والقائمين عليها من أجل خدمة المواطنين، لكن لا أحد.. لا أحد على الإطلاق لم يتعثَّر يومًا بموظَّفٍ أراهُ من الويل والروتين المُمِلِّ أطنانًا، فتحت جزءًا لا بأس به من زجاج السيّارة وهي تنظُر لعادِل الذي يجلس خلف حزام الأمان في سلامٍ ووداعةٍ يحاول حلَّ لغز مُكعَّب روبيك، نادته في لينٍ: «عادل يا حبيبي»

رفع عينيه عن المُكعَّب، بينما استمرَّت يداه الصغيرتان وأصابعه النحيلة في لفِّ أجزاءٍ من وجوه المُكعَّب حول محورها في رتابةٍ، قالت: «سأترك لك النافذة مفتوحةً، لا تفتحها أكثر من ذلك، لا تتحدَّث مع الأغراب، لا تسمَح

لأحدٍ بدخول السيّارة حتى آتي لك، هل فهمت؟»

هزّ رأسه قبل أن يعود لمُكعَّبه دون تعقيب على سلسلة التحذيرات التي ألقت بها في وجهه بغتةً، انغلَق المسكين على نفسه من بعد الطلاق، وما زالت هي تحاول أن تسبر أغوار عزلته دون جدوى، لكنّها كانت مُتأكِّدة أنّها ستجد طريقةً لتفعل ذلك.

تأكّدت من إغلاق السيارة جيّدًا، ألقت عليه نظرةً أخيرةً، تسلَّحت بالضيق والتأفُّف، وانطلقت في خطواتٍ سريعةٍ نحو المبنى، أولًا ستذهب للسجلِّ المدنيِّ من أجل تغيير حالتها الاجتماعيّةِ وعنوان السكن، ثمَّ ستعرج على الشهر العقاريِّ لتتأكّد من تسجيل عقد إيجار الشقّةِ الصغيرةِ التابِعة للشركةِ التي تعمل بها خوفًا من أن تقع في أيِّ مشاكِل أو تعقيدات.

كان الأمل يقف فوق كتفها الأيمن كعصفورٍ أبيضَ صغيرٍ، قبل أن يسقط فوقه فجأةً طابورٌ من زحامٍ لا ينتهي ليسحقه دون هوادة، وقفت في الحرِّ وهي تتلفَّت حولها بحثًا عن أيِّ طابورٍ يتحرَّك، لكنَّ الأمر بدا مُستحيلًا، يتعامل المواطنون على أنَّ من وصل إلى الشبّاك الزجاجيِّ الذي يجلس خلفه الموظَّف يجب ألّا يرحل عنه أبدًا، يطيلون الوقوف، يملؤون فراغات الصمت بأسئلةٍ لا معنى لها، وكأنّهم يخرجون ألسنتهم لمن هم خلفهم، طال الوقت ولم يقصر الطابور إلّا قليلًا، بعد ساعةٍ تقريبًا وصلت لموظُّفٍ مشغولٍ في قراءة

بعض الأوراق التي لم تعرف ماهيّتها، قال في بطءٍ دون أن يتكبَّد عناء النظر إليها: «تفضلي، كيف أخدمكِ؟»

قالت وهي تمدُّ يدها بالاستمارة التي ملأَتها بالأمس من الشباك المفتوح الصغير: «أريد فقط تغيير محلِّ الإقامة والحالة الاجتماعيّة»

سألها في رتابةٍ: «هل دفعتِ الغرامات؟»

قالت في سُرعة: «أجل، وهذه هي الإيصالات»

مدَّ يده وأمسك باستمارتها، تفحَّص بعض الأوراق بحثًا عن أيِّ خطأٍ قبل أن يقول: «أين قسيمة الطلاق يا فندم؟»

مدَّت يدها في ملفٍ تحمله وبحثت بين الأوراق التي ملأته بأيدٍ مليئة بالعرق قبل أن تُمسِك بأصل القسيمة وصورتها وتعطيها له، تفحّصها بسُرعةٍ قبل أن يُعيد لها الأصل ويحتفِظ بالصورة، قال دون أن ينظر إليها مرّةً أخرى: «وعقد إيجار المنزل الجديد؟»

بحثت بين الأوراق حتى وجدت الورقة التي أرسلتها لها الشركة والتي تقضي بانتقالها للمسكن الجديد الموجود في بور فؤاد، أعطته الورقة، نظر إليها قبل أن يرفع عينيه ويقول في سُخريةٍ: «ما هذه؟»

قالت في سُرعةٍ وكأنّها تُدافِع عن نفسها ضدَّ تُهمةٍ لا يعلمها إلّا الله: «ورقةٌ رسميةٌ من العمل تُفيد بأنّني أسكن

هذا العنوان»

قال في ملل: «غير مُعتدٍّ بها، أريد عقد إيجارٍ رسميٍّ»

قالت في قلقٍ: «لم أستخرجه بعد»

قال في نفاد صبرٍ: «استخرجيه وتعالي ثانيةً يا فندم»

تأمَلَتْ الطابور الطويل من خلفها وهي تقول: «لا بُدَّ من حلٍّ آخرٍ، أليس كذلك؟»

قال وهو يعود للورق الذي يُمسِك به: «لا حلولَ أخرى للأسف»

قبل أن يُنادي بصوتٍ عالٍ: «التالي..»

أزاحتها امرأةٌ سمينةٌ ترتدي عباءةً سوداء جانبًا وهي تبدأ وصلةً من الحديث مع الموظَّف، تجمَّدت ريم في مكانها غير مُصدِّقةٍ ما حدث للتوّ، دفعتها المرأة جانبًا وكأنّها ليست إنسانًا من الأساس، وكأنّها تدفع كومود أو مقعدًا، ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تقول للموظَّف: «لماذا سأغير عنوان سكني إن لم أسكُن فيه؟»

قال دون اهتمام: «لا أعرِف، ومن فضلكِ لا تضيعي وقتي»

شعرت بالضيق من الطريقة التي أجابها بها، مسحت عبرةً انسالت من عينها اليُسرى لتسيل فوق وجنتها في ضيقٍ وهي تقول: «لماذا؟»

أجابها الموظَّف في ضيقٍ: «لا تضيعي وقتي من فضلكِ وإلّا طلبت لك الأمن»

شعرت بالإهانة، بالضيق، شعرت أنّها ضئيلةٌ للغاية وسط العديد من الضِخام، ضاقت جدران المكان بها، وضاق صدرها بقلبها حتى كادت تختنِق، صرخت فجأة: «لماذا تفعلون هذا بي؟ لماذا؟»

ساد الصمت المكان بأسره، تحوَّلت أنظار الجميع لتُتابعها، توقَّف الموظّفون عن تعطيل المواطنين، وتوقَّف المواطنون عن تعكير صفو الموظّفين بطلباتهم وحقوقهم المشروعة، نظر لها الجميع بينما استمرَّت في انهيارها العصبيِّ: «هل كُنتم ستفعلون ذلك لو كان حيًّا يُرزَق؟ هل كان أحدكم ليجرؤ على تعطيلي بهذا الشكل؟»

قبل أن تنظُر للسماء بغتةً وهي تقول: «لماذا رحلت وتركتني يا أبي؟»

سمعت أحد الواقفين بجوارها يقول: «هل جُنَّت؟»

قالت أخرى وهي تجيبه: «لا، يبدو أنّ لديها ظرفًا ما أو تُعاني من شيءٍ فوق استطاعتها على التحمُّل»

نظرت لهما بغضبٍ وهي تقول: «لا، لقد توفيّ والدي منذ ثلاثة أشهرٍ، لو كان موجودًا لاستطاع أن ينهي كُلَّ هذا الأمر، لو كان موجودًا لاستطعتُ البقاء عنده أنا وطفلي،

لو كان موجودًا لما أتيتُ إلى هنا من الأساس، لو كان موجودًا..»

لم تستطِع أن تُنهي جُملتها، خنقتها الدموع وصبغ الحُزن كلامها بالمرارة، ضاق بها المكان فلم تعُد تطيقه أو تحتمله، ألقت بالملف أرضًا وهي تهرع في خطواتٍ سريعةٍ مُتجاهلةً العديد من الـ (لا حول ولا قوة إلّا بالله) والـ (لا إله إلّا الله)، ركضت حتى وصلت إلى السيارة، فتحتها وألقت بنفسها على المقعد، دفنت وجهها بين كفّيها، وانهارت في نوبةٍ بكاءٍ عظيمةٍ مُستسلِمةً لتسونامي من الحُزن يجتاح قلبها.

يبدو أنَّ الجرح لم يلتئم بعد!

فهل لنا وسط الوحوش حياةٌ قبل النجاةِ من غياهِب الحُزنِ؟

***

(٢)

تصاعَد صوتُ بكائها عاليًا، أمسَكَت بوسادةٍ ودفنت رأسها فيها كتمًا للصوت، الذي كان عاليًا رغم فعلتها، حاولت أن تصمت، أن تكبت حُزنها بداخلها، أن تتماسَك، لكنّ جرحها كان أقوى منها، شعرت بالألم يسري في عروقها، والوجع ينخز روحها، صرخت مرّةً أخرى وهي تدفن وجهها في الوسادة أكثر، سمعت صوت طرقاتٍ على باب غُرفتها المُغلَق، كانت تعرف هويّةَ الطارِق، فمنذ وفاة والدتها لا يعيش في المنزل سواها هي ووالدها، لم تكُن في حالةٍ تسمَح لها بتركه يدخُل إلى الغُرفة، حاولت التماسُك قليلًا وهي تقول: «أجل»

أتى صوتها مشروخًا، وعلى الرغم من المحاولات التي قامَت بها لإخفاء ألمها، إلّا أنّه كان واضِحًا جليًّا، توقّعت أن يفتَح باب الغُرفة ويدخُل، بدأت تُفكِّر في حججٍ لتُخبِره بها عن سبب بكائها، لكنّ ذهنها كان مُثقلًا بالحُزن وروحها مصبوغةً باليأس، دمعت عيناها وشعرت بحلقها يحتقِن أكثر، ضايقها عجزها عن إيجاد حجّةٍ مُناسبةٍ، تنهَّدت مُستسلِمةً، لكنّ صوته أتاها من خلف الباب المُغلَق وهو يقول بحنوٍ: «ارتدي ملابسكِ يا ريم، ستأتين معي إلى مكانٍ ما، أمامكِ ساعتان تقريبًا.»

حاولت أن تعترِض، لم تكُن في مزاجٍ رائقٍ للذهاب إلى أيِّ

مكانٍ على الإطلاق، قالت: « لكن يا أبي..»

قال بلهجةٍ آمرةٍ وإن جعلتها الطيبة التي فاضَت على صوته فأغرقته أشد وطأة بكثيرٍ: «ساعتان يا ريم، ساعتان!»

سمعت صوت خطواته المكتومة تبتعِد عن الباب في سُرعةٍ، تنهَّدت لأنها تخلَّصت من عبءٍ كان ثقيلًا على قلبها، ألا وهو إيجاد حجّةٍ مُناسِبةٍ لتبرير بُكائها بهذا الشكل، لكنّها الآن وقعت في ورطةٍ جديدةٍ، بالتأكيد سيجلس أمام التلفاز ليُشاهِد مُباراة كرة قدمٍ بين فريقين لم تسمَع عنهما من قبل، وبالتالي ستمُرُّ عليه قبل وصولها إلى الحمَّام، وسيُلاحِظ آثار البُكاء والحُزن على وجهها، وبالتأكيد سيسألها عمّا حَدَث! أو عن سبب حُزنها بذلك الشكل وبتلك الطريقة!

وارَبت الباب، مسحت الصالة بعينيها، لكنّه لم يكُن يجلس أمام التلفاز كعادته، بل كان في غُرفته مُغلَقة الباب، كانت صُدفةً غريبة، فتحت دولاب ملابسها، التقطت بعض القطع الداخلية على عُجالة، وأسرَعَت نحو الحمَّام، تحمَّمت لفترةٍ لا بأس بها، لتسمح لعينيها المُنتفختين من أثر البُكاء بالعودة إلى حالتهما الطبيعية، كما ساهَم الماء الدافئ في استرخائها للغاية، خَرَجت بعد ما يُقارِب الساعة، وجدته لم يخرُج إلى الصالة بعد، غريب!

عادَت إلى غُرفتها، بدَّلت ملابسها، وضعت بعض

مساحيق التجميل التي ساعدتها للغاية على إخفاء آثار الألم والحُزن، وبمُجرَّد أن انتهت سمعته يطرُق على الباب ليسألها: «هل أنتِ جاهزة؟»

أجابته سريعًا: «أجل يا أبي»

ابتسم وهو يتنهَّد بارتياحٍ، وهو الأمر الذي لم ترَه كون الباب الخشبيِّ الخاصِّ بالغُرفة يقف عائقًا بينهما، فتحت الباب وخَرَجَت، استقبلها باسمًا وهو يحتضنها في رفقٍ ولينٍ، همس في أذنها: «أنا أسعد الرجال حظًّا اليوم يا بُنيتي»

تعجَّبت من حديثه، فسألته في دهشةٍ: «لماذا يا أبي؟ لعلّه خير؟»

ابتسم وهو يضمّها لصدره بحنوٍّ أكبر: «لأنّ بصحبتي أجملَ بناتِ الأرض»

ضحكت في خجلٍ ووجنتاها تحمرَّان قليلًا، أمسك بيدها وهبطا للأسفل، فَتَح لها باب السيّارة وهي تركَب، قبل أن يقودها لوجهتهما التي رَفَض أن يُخبرها عنها، تحدثا سويًّا في كثيرٍ من الأشياء، كان لطيفًا ودودًا حسن المعشر، ابتسامته لا تُفارِق شفتيه أبدًا، في النهاية.. وبينما هي مُنهمِكةٌ في الحديث، صفَّ سيارته في شارعٍ جانبيٍّ مُظلِمٍ وهو يقول لها: «هيا بنا»

سألته في دهشةٍ: «إلى أين؟»

اتّسعت ابتسامتُه الغامضةُ وهو يقول: «سترين بنفسك»

بعد لحظاتٍ من المشي دون هدىً، وجدت نفسها أمام دار الأوبرا، نظرت لوالدها في غير فهمٍ، ابتسم وهو يسألها: «ألستِ تُحبين محمّد منير؟»

اتّسعت عيناها في دهشةٍ وعدم تصديقٍ، كرَّرت الاسم بهمسٍ وكأنّها تتأكّد منه: «محمّد.. منير!»

هزَّ رأسه إيجابًا، صفّقت بيديها في جزلٍ، ابتسم رجلٌ كان يعبر بجوارهما، ابتسم والدها في حرجٍ وهو يُمسِك بيدها ويقودها إلى المسرح الذي تُقام به الحفلة، وهو مسرحٌ خاصٌّ تمَّ بناؤه خصّيصًا لحفلةٍ كهذه، تحسّبًا لعدد الحضور الضخم، خصوصًا وأنّ جمهور مُنير مُخلِصٌ له ودائمًا ما يكون حريصًا على حضور حفلاته، اكتشفَتْ أنّه قام بحجز تذاكر في الصفوف الأماميّة، وهذا يعني أنّه ستتاح لها الفُرصة لرؤيته عن قُربٍ، ولأولِ مرّةٍ في حياتها.

دخلا إلى المسرح قبلَ بدءِ الحفلة بساعةٍ تقريبًا، جلسا في مقعديهما، كانت تنظُر للمسرح في ولعٍ وهي تسمَع الفرقة الموسيقيَّة تستعِد من خلف الستار المُغلَق، طالعها بطرفِ عينه وهو يبتسِمُ، كانت السعادة تحتلُّ كيانها وتفيض لترسم علامات الفرحة فوق ملامحها، مرَّ الوقت سريعًا، ولم تُفارِق ابتسامتها وجهها، ظلَّت عيناها مُعلَّقتان بالستار المُغلَق في تأهُّبٍ وترقُّبٍ، فجأةً.. أظلم المسرح تمامًا، ساد الصمت، إلّا

من بضع همهماتٍ هامسةٍ تتردَّد هنا أو هناك، وبعد دقائِقَ من الصمت.. شعر الجميع بالستار يُفتَح، لكنَّ المسرح كان غارقًا في الظلام، فجأةً.. أنار كشَّافٌ قويٌّ كان مُعلّقًا في سقف القاعة، ألقى بضوئه على خشبة المسرح، ليكشِف عن الكينج، محمّد مُنير بشحمه ولحمه، كان يقف في وسط دائرةِ الضوءِ مُبتسِمًا، هاج الجمع وصفّقوا كالمجانين، وقفوا في أماكنهم، دوّى صوت الصفير عاليًا، ابتسم الكينج وهو يشكر الجميع في إشارةٍ بيده فوق رأسه، طال الترحيب ولم تختفِ ابتسامة الرجل.

بعد بضع دقائِقَ بدأ أحد العازفين بعزفِ لحن أغنيةٍ شهيرةٍ، قلَّ صوت التصفيق والصفير بالتدريج، واحتلَّ صوت الآلات الموسيقيّة القاعة بأسرها، هزَّ الكينج رأسه مُتمايلًا مع نغمات الموسيقى قبل أن يصدح صوته عاليًا:

«أنا بعشق البحر.. زيّك يا حبيبتي حنون..

وساعات زيّك مجنون.. ومهاجر ومسافر..

وساعات زيّك حيران.. وساعات زيّك زعلان..

وساعات مليان بالصمت.. أنا بعشق البحر»

تمايلت ريم كغيرها من عاشقي محمّد مُنير مع الأغنية، ردَّدوها من خلفه بصوتٍ عالٍ، صفقوا في أجزاءٍ مُعيَّنةٍ، سمع الجميع صوت شخصٍ يصرُخ في نشوةٍ: «الله!»

كان الجميع في حالة سعادةٍ، إلّا أنّ والدها جلس صامتًا، وكأنّه في لقاءٍ مع السيّد المُحافِظ مثلًا، جلس بوقارٍ يُشاهد محمد مُنير يُغني، وهو يرمُق ريم بين الفينة والأخرى، إلى أن انتهى مُنير من أغنيته، صفّق الجميع بشدّةٍ، تعالت صيحاتُ الإعجاب، مال عليها وهمسَ في أذنها: «نجاة تُغنيها أفضل منه»

قهقهت ريم في سعادةٍ، كانت تعرف أنّه يميل للمطربين والمُطربات القدامى، وأنّه يعتنِق رأي العجائِز في أنّ مُطربي جيلهم الحالي أفسدوا الغناء والطرب.

صَدَح صوت مُنير ثانيةً بأغنيةِ (لمَّا النسيم) تبعها بـ (قلبي مساكِن شعبية) واستمرَّ في أغانيه واحدةً تلو الأخرى، تفاعَل معه الجميع في سعادةٍ ونشوةٍ غير طبيعيّةٍ، تلفَّتَ الرجل من حوله يمنةً ويسارًا وهو يرمق الشباب الغارقين في السعادة وهو يهزُّ رأسه، خصوصًا هؤلاء الموجودين في المساحة الواسِعة الموجودة خلف المقاعِد الخاصَّة، هؤلاء الغارقون في الرقص والغناء بصوتٍ عالٍ، لم يكُن يُصدِّق أن لمُطربٍ من هذا الجيل مثل هذا التأثير على هذا العدد من الشباب وبهذه الطريقة، ماذا لو سَمِع هؤلاء الحمقى الأستاذ محمّد عبد الوهاب أو الأستاذ فريد الأطرش؟ ناهيك عن العندليب والست!

أعلَن منير في مُكبِّر الصوت أنّه ترك واحدةً من أغانيه المُفضّلة ليختم بها الحفل، تغيَّرت الإضاءة قليلًا، صمت

الجميع، وبدأت الفرقة الموسيقية في العزف، قبل أن يصدح صوته مُغرِّدًا:

«شبابيك.. شبابيك.. الدنيا كلّها شبابيك..

والسهر والحكاية والحواديت..

كلّها دايرة عليك.. والكلام كان عليك..

واللي كان خايف عليك.. انتهى من بين ايديك..

دي عنيك.. شبابيك.. والدنيا كلّها شبابيك..

سرقت عمري من أحزاني.. سرقته لكن ما جاني..

ولا حد شاف فين مكاني.. ورا الشبابيك

دي عنيك.. شبابيك.. والدنيا كلّها شبابيك..

غيّرت ياما كتير.. ياما كتير أحوالي..

وانا كونت عاشق وكان يحلالي..

أحب بس يكون حلالي ورا الشبابيك..

دي عنيك.. شبابيك.. والدنيا كلّها شبابيك..

انا بعت الدموع.. الدموع والعمر..

طرحت جنايني في الربيع الصبر..

وقولت انا عاشق.. سقوني كتير المرّ.. ورا الشبابيك..

دي عنيك.. شبابيك.. والدنيا كلّها شبابيك»

لكنّ ريم لم تتفاعَل مع الأغنية مثلما فعلت مع بقية الأغاني، بل أخذت تُردِّد كلماتها في حُزنٍ وهي جالسةٌ مكانها كالتمثال، ودموعها تتساقَط على وجنتيها، احتضنها فأمسكت بتلابيبه وهي تدفن وجهها في صدره وتبكي، ربّت على ظهرها وهو يُقبِّل رأسها، أُغلِق الستار، وأضيءَ المسرح، وانفضَّ الجمع من حولهما، لم يبقَ سواهما في المسرح، جاء الموظَّف المسؤول عن المسرح وأشار له أنّ الوقت قد حان، لكنّ والدها استأذنه في عشر دقائِقَ إضافيّةٍ، ووافق الرجل في لمحةٍ مُهذَّبةٍ.

رفعت رأسها وهي تنظُر إليه، ابتسم وهو يمسح دموعها عن وجهها بإبهاميه، دون أن تُسيطِر على دموعها، أمسك بيدها وقبَّلها وهو يقول: «لا يوجد في هذا العالَم ما يستحِّق دموعكِ، أنتِ أغلى وأهمُّ من كُلِّ شيءٍ آخر، لا تبكِ فراقًا أو خيانةً يا صغيرتي، لأنّكِ لن تكوني الطرف الخاسِر في أيّهما أبدًا، أنا هنا من أجلكِ.. دائمًا ما سأكون هنا.. لن أتركِكِ أبدًا، لن أسأل عن أيِّ شيءٍ لا تُريدين إخباري به، وسأكون خيرَ من يسمَع عندما تشعرين أنّكِ مُستعِدةٌ لإخباري، لن أحكم عليكِ أبدًا، ولن أنصحكِ إلّا إذا طلبتِ نصيحتي، وأخيرًا وليس آخرًا.. لن أجبركِ على أيِّ شيءٍ»

ابتسمت وهي تتوقَّف عن البكاء أخيرًا، ترك يدها وهو يُخرِج منديلًا من جيب جاكيت بدلته، لكنّها تجاهلت

المنديل واحتضنته، لفَّت ذراعيها في امتنانٍ حول رقبته، احتضنها بدوره وهو يُكمِل حديثه قائلًا: «عندما نعود إلى المنزل، ستجدين في غُرفتكِ ثلاجةً صغيرةً، بها جميع أنواع الشوكولاتة التي تحبينها، جميع أنواع المياه الغازيّة التي تشربينها، أمّا عن دولاب المطبَخ والثلاجة الكُبرى فستجدينها مليئةً بكُلِّ أنواع الطعام التي تعشقينها، تركت المُفتاح مع حارس العقار ليسمَح للعُمَّال بإنهاء العمل أثناء وجودنا هنا في الحفلة»

نظر في عينيها وهو يقول بعينينِ دامعتين: «أنا دائمًا هنا من أجلكِ»

أمسك بيدها وخرجا سويًا من المسرح، وللمرّةِ الأولى خلال أحدِ أسوأِ أيام حياتها، تجد نفسها سعيدة!

والفضل في ذلك.. يرجَع لأبيها!

***

وقفت أمام المرآة وهي تُغلِق آخر زرٍّ في قميصها، تأمَّلت نفسها قليلًا، هذه هي المرّةُ الأولى التي ترتدي فيها بدلةً نسائيّةً، أشبه بالبدل الرجالية لكنّها ضيّقةٌ بعض الشيء، بدلةٌ سوداء فوق قميصٍ أبيضَ، اختارَت أن تترك زرّه الأول مفتوحًا بعض الشيء ليسمَح لها بالتنفُّس بشكلٍ طبيعيٍّ دون أن يُظهِر أيًّا ممّا أرادت إخفاءه، تأكَّدت من أنَّ كُلَّ شيءٍ على ما يُرام قبل أن تبتسِم لنفسها في المرآة، اليوم هو

يومها الأول بشكلٍ رسميٍّ في العمل، كان من المُفترض أن تذهَب بالأمس.. لكنّها تعرَّضت لانهيارٍ عصبيٍّ صغيرٍ حال دون قيامها بذلك.

وبطريقةٍ ما - ربّما بسبب المشهد الدرامي التي قامَت به رغمًا عنها في السجلِّ المدنيِّ - عَرَف المسؤولون في شركتها ما حَدَث، وفي الواقِع قاموا - مشكورين - بإرسال من ينوب عنها في استخراج عقد الإيجار ومُساعدتها في تعديل بيانات بطاقتها الشخصيّةِ، وهو الأمر الذي لم يستغرق وقتًا تقريبًا بعد أن تسلَّحوا بكُل الأوراق المطلوبة مما أوقع الموظفين في حيرةٍ بالغةٍ، وبعد عدّةِ محاولاتٍ فاشِلةٍ.. لم يجدوا بدًّا من إنهاء الأمر.

خرجت من الغُرفة، وجدت عادِل يرتدي زيّه المدرسيَّ الكامِل، كانت قد بحثت حتي وجدت له مدرسةً خاصّةً جديدةً في بور فؤاد، كمحاولةٍ لإقناع نفسها أنّها لا تزيد من طينِ حياته بلَّة بقبولها لوظيفتها الجديدة كمُديرٍ عامٍ لفرع الشركة الجديد في بور فؤاد، وهو الأمر الذي رأته كعقابٍ لها على تقصيرها في العمل في الآونةِ الأخيرة وخصوصًا بعد الطلاق، ورآه الكثيرون كمُكافأةٍ لا تستحِقها، لكنَّ أحدهم لم يجرؤ على الإفصاح بالأمر، كان عادِل مُنهمِكًا في اللعب بديناصورٍ بلاستيكيٍّ مشوّهٍ على الأرض، يُحرِّكه بيده الصغيرة وهو يُصدِر صوت زئيرٍ طفوليٍّ مُضحِكٍ من بين شفتيه.

ابتسمت وهي تسأله: «هل أنت جاهزٌ ليومك الدراسيِّ الأولِ في مدرستك الجديدة؟»

رفع وجهه ونظر إليها دون أن ترتسِم على محياه أيّ تعبيراتٍ تستشِفُّ منها ما يدور بداخله، هزَّ رأسه يُمنةً ويسارًا في دلالة على النفي، لكنّها مدَّت يدها نحوه على أيِّ حالٍ وهي تقول: «حسنًا، هيا بنا.. لنتحدَّث في الطريق»

دخلت إلى غُرفتها قبل أن تعود مُمسكةً بكتابٍ قديمٍ من الكُتب التي وجدتها في مكتبة والدها، أملت أن تجد وقتًا كافيًا لقراءته، كان عادِل قد تجاهل أمرها السابِق وظلَّ جالسًا يلعب، قالت بلهجةٍ آمرةٍ: «ألم أقل هيا بنا؟»

لم يجد المسكين مفرًّا، ترك ديناصورهُ الصغير على الأرض ووقف وهو يُمسِك بيدها باستسلام من يُساق إلى قدرٍ لا يرغَب في مواجهته، أمسكت بيده قبل أن تنظُر له بدهشةٍ وهي تسأله: «هل تشعُر بالبرد؟»

كانت يده باردةً كلوحِ ثلجٍ، باردةً للدرجةِ التي جعلت جسدها يقشعِرُّ وقلبها ينكمِش، هزَّ الصغير رأسه في نفيٍ، مطَّت شفتها السُفلى في دهشةٍ وتعجُّبٍ وهي تلتقِط حقيبته بيدها الأخرى، أمسكت حقيبةً صغيرةً لتتماشى مع بدلتها الرسميّة، وخرجا من باب الشقّة سويًّا، لم تنس ارتداء حذاءٍ بكعبٍ عالٍ حاول أن يقتلها أكثر من مرّةٍ أثناء نزولها درجات السلّم، لكنّها نَجَت من محاولاته المُستمرَّة، توجَّهت نحو

سيارتها لتركبها لكنّها توقَّفت وقد تجمَّد الدم في عروقها بغتة، ففوق سيارتها.. كان يرقد أحد أسوأِ كوابيسها نائمًا!

كلبٌ بلديٌ أسودُ اللونِ، قبيحٌ بشكلٍ لم تره من قبل!

أمسكت بعادل وأخفته خلفَ ظهرها بيدٍ مُرتعدةٍ، وكأنّها تحميه من غدرِ الكلب إذا ما غَضِب وحاول مُهاجمتهما، التقطت حجرًا صغيرًا وألقته نحو الكلب بيدٍ مُرتعدةٍ، لكنّ الحجرَ لم يصل له من الأساس، التقطت آخرَ وثالثًا ورابِعًا، حتى أصابَ الكلبَ الحجرُ السابعُ والثمانين بعد المائة الثالثة تقريبًا، هزّ أذنه في ضيقٍ وهو يستيقظ من نومه لينظُرَ من حوله عن تلك التي جرؤت فأيقظته من نومه الهانئ، رآها وهي تقول له: «هش! امشِ! هش!»

نظر لها بتعجُّبٍ لثوانٍ قليلةٍ، بدا وكأنّه يشعُر بالإهانة.. فهذه أوّلُ مرّةٍ يخبره أحدهم أن يـ (هِش)!

انحنت لتلتقِط حجرًا آخرًا، فَهِم الكلب ما يحدُث، كشَّر عن أنيابه نحوها وسال لُعابه وهو يقفِز من فوق السيارة ليقِف أمامها في تحدٍّ سافرٍ، ألقت الحجر نحوه فقفز جانبًا ليزداد تكشيره عن أنيابه، اقترب خطوةً وهو يُزمجِر بطريقةٍ مُرعبةٍ، فكَّرت في طريقةٍ لتحمي بها عادِل من هجومه الذي اقترَب بشدّةٍ، لكنّ الخوف كان قد استغّل الوقت وقيّد عقلها ليمنعه من التفكير، تجمّدت في مكانها وقد شلَّ الخوف حركتها تمامًا، تعرِفُ ما هو آتٍ.. لكنّها لا تفقه

طريقةً لمنعه!

أفاقَت من دوامة أفكارها على صوت بكاءِ عادِل، الذي شعر بالخوف فتشبَّث بقدم أمّه بأيدٍ مُرتعدةٍ، شعرت برعدة جسده الضئيل، حملته رغم ثقله، لكنّها لم تهتَمَ لشيءٍ سوى أمانه، ضمَّته إلى صدرها غير عابِئةٍ بالكلب الذي شمَّ رائحة خوفهما فاقترب أكثر، سال لعابه مثلما ستسيل دماؤهما لو فكَّر في مُهاجمتهما، ضمَّت عادِل أكثر دون أن تعرِف هل تطمئِنُهُ.. أم تطمئِّنُ به! تراجعت بضعَ خطواتٍ للخلف، تحاول الاتزان فوق الكعب العالي الذي ترتديه، والذي لم يُصنَع من أجل مثل تلك المواقِف، صرخ عادِل في أذنها وهو يسمَع زمجرة الكلب الوحشيّة، كان غاضبًا لأنّها أيقظته من نومٍ عميقٍ، بعد ليلةٍ طويلةٍ قضاها في مُطاردةِ المُصلّين على طول الطريق.

كانت عيناه تلتمعان في شرٍّ لم تره من قبل، حاولت أن تهدأ، رغم صراخِ عادِل وخوفه، الرعدة التي تجتاح جسده الضئيل، ودقَّات قلبه الوَجِل الذي شعرت به عبرَ صدرها بسبب تلاصقهما، بدأت تُفكِّر في سبيلٍ للهروب.. فلا طائِل من المواجَهة!

نظرت للخلف، تبتعِد بوابةُ المنزل الذي يقطنانه عنهما بعض الشيء، ومن حوله أرضٌ قاحِلةٌ لا أبنية فيها، لا عماراتٍ مجاورةً، لا متاجِرَ قريبةً، ولا مكان للاختباء، كان الحلُّ بسيطًا رغم صعوبته وتعقيده.. إذا ما أرادت الهروب

من الكلب، فعليها أن تلجأ لباب عمارتها، فتختبئ خلفه وتُغلِقه في وجه الكلب!

لكن كيف ستصلُ إلى هناك؟

انتبهت فجأةً إلى أنّ صوتَ زمجرةِ الكلب قد اختفى، توقَّف تمامًا كأن لم يكُن، نظرت أمامها في حيرةٍ ودهشةٍ.. لكنّها لم تجده، بحثت عنه بعينيها، وهو الأمر الذي كان سهلًا كون الأرضِ القاحلةِ مُنبسِطةٌ أمامها دون ستار أو عائِق، وجدته يبتعِد دون هدىً، يبدو أنّه ملَّ خوفها وعجزها عن التصرُّف، ملَّ قلّةَ حيلتها واستسلامها، ملَّها وملَّ خوفها!

سألها عادِل من بين نهنهات دموعه: «هل سيعود؟»

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تجيبه: «أتمنى ألا يعود»

***

استمرَّت رحلتهما في صمتٍ مهيبٍ، لم يشقّه سوى صوتٍ أنثويٍّ معدنيٍّ صادِرٍ عن هاتفها، وهو الصوت الذي عيَّنه المسؤولون عن برنامج تحديد المواقِع، وهو البرنامِج الذي استعانَت به ليدلّها على مدرسة عادِل الجديدة، كانت قد نَسَت اسمها تمامًا، هو اسم أحد الباشوات القدامى الذي كان يمتلك قصرًا وعدّة فلل في بورفؤاد في عهد الملك فاروق، أم تُراه كان فؤاد؟ بعد وفاته قرَّر أحفاده منح القصر للمُحافظة، والتي بدورها منحته لأحد رجال الأعمال

المشهورين للغاية فحوّله لمدرسةٍ خاصّةٍ سمّاها على اسم الباشا تكريمًا له، لكنّها نَسَت تمامًا اسمه، فقرَّرت البحث عنه في برنامج تحديد المواقِع تحت اسم: (قصر الباشا)

وظهرت لها النتيجة فورًا، اتّبَعت تعليمات البرنامج وانصاعَت لأوامر الصوت المعدنيِّ المُمِلِّ إلى أن وجدت نفسها أمام قصرٍ ضخمٍ للغايةِ، جدرانه مُغطاةٌ بفُسيفساء مُذهّبة، لم يكُن عدد الأطفال كبيرًا، لكنهم تناثروا أمام القصر يمشون ببطءٍ رتيبٍ وملَلٍ رهيبٍ، كان هذا مفهومًا كون الأطفال لا يحبون المدارس، لم تر أيَّ بالغين في الجوار، كان هذا غريبًا، لكنّها فسَّرت الأمر بأنَّ بور فؤاد منطقةٌ صغيرة، وبالتالي ربما يسمَح الأهالي للأطفال بالذهاب للمدرسة بمُفردهم، وقفت أمام القصر وتأملته قليلًا، كان ضخمًا بشكلٍ مَهيب، ارتفعت جدرانه حتى بلغت السماء طولًا، واخضرَّت جنائنه حتى سلبت الأعين والألباب.

فَتَح عادل الباب بتردُّدٍ، التقط حقيبته وسار يُقدِّم ساقًا ويؤخِّر الأخرى وهو يسير نحو بقية الأطفال، بدا أن أحدًا لم ينتبه له أبدًا، كان هذا بديهيًا.. كونه يومه الأول، سار حتى وَصَل للبوّابة، صعد سلمًا صغيرًا مكوّنًا من ثلاثِ درجاتٍ وصولًا للبوّابة، عبرها في سُرعةٍ واختفى عن عينيها وسط الظلال.

ابتسمت وهي تتحرّك بالسيارة نحو مقرِّ الشركة، دون أن

تنتبه لأعين الأطفال التي تعلّقت بالسيارة قليلًا، ودون أن تنتبه كذلك لحركتهم المُتصلِّبة الجماعية وهُم يتحرَّكون نحو باب القصر ليبتلعهم الظلام واحدًا تلو الآخر.

***

تركت كتابها جانبًا وتثاءبت في مللٍ لم تعرفه من قبل، ما زال مقرُّ الشركة هنا جديدًا، ولا توجد أيُّ أعمالٍ يقومون بها أو أشغالٍ ينشغلون فيها حتى يحين موعِد انتهاء العمل بشكلٍ رسميٍّ، كان الفرع هنا يعمل به حوالي ٦ أشخاص حتى الآن، هي ومُديرة مكتبها، اثنان من الموظَّفين، عامل النظافة والشاب المسؤول عن المطبخ، لم يعمل الفرع بعدُ بشكلٍ رسميٍّ، وما زالت الطلبيات الخاصَّة بقطاع القناة تخرُج من مخازن الدلتا، إلى أن يجدوا مكانًا يصلح لأن يكون مخزنًا رسميًا في منطقة القناة، وحينئذ ستنتقِل الطلبيّات لتُصبح مسؤوليّة هذا الفرع، وإلى أن يحدث هذا.. فالملل هو المُتحكِّم الوحيد فيهم.

عملهم الوحيد في الوقت الحالي هو مُتابعةُ خدمات ما بعد البيع، وهي التي نادرًا ما تحدُث بها أيّة مُشكلاتٍ أو عقباتٍ، لذلك كان العمل هادِئًا إن لم يكُن معدومًا في الوقت الحالي.

تثاءبت ثانيةً وهي تنظر عبر الباب الزجاجيِّ لترى مُديرة مكتبها وهي تُمسِك بواحدةٍ من الروايات لتقرأها، كانت

روايةَ خيالٍ علميٍّ تُدعى (الوعاء الخاوي) لكاتِبٍ شابٍ يُدعي باسم الخشن، من أين يأتون بتلك العناوين العجيبة!

التقطت هاتفها المحمول من على سطح المكتب وهي تفتح موقع التواصل الاجتماعيِّ الشهير (الفيس بوك)، تصفَّحت المواضيع التي كتبها الموجودون في قائمةِ أصدقائها في مللٍ بالِغٍ، بضعُ وفياتٍ، عددٌ لا بأس به من المنشورات المسروقة، بضع نكاتٍ سيّئةٍ، أغنيتان لشبابٍ جُدد لم تُميِّز أسماءهم، لا جديد!

قبل أن تضع هاتفها وجدت أن أحد صديقاتها قد قامت بمُشاركة منشورٍ قام بكتابته أحدُ كُتَّاب الرعب المشاهير، قرأت اسمه (عمرو المنوفي)، فكَّرت قليلًا.. الاسم مُميَّز، يجب عليها أن تقرأ له يومًا ما، كان الكاتِب قد كتب تقريرًا عن واحدة من المساكِن المصريّة المسكونة، تحديدًا عن مدرسةٍ مسكونةٍ، بدأت في قراءة التقرير الذي جاء بأسلوبٍ عذبٍ جذّاب:

«وهذا القصر الذي كان قديمًا يُطلَق عليه اسم (فيلا ديليسبس) كان قديمًا فيلا ضخمة للغاية، والحقيقة أن هذا الاسم الذي يُطلِقه عليه سُكّان مُحافظة بورسعيد خاطِئٌ تمامًا، الحقيقة أنّ هذه الفيلا التي تمَّ بناؤها في أراضي منطقة طرح البحر الشهيرة، وتحديدًا بشارِعِ صلاح سالِم والحريّة، كانت ملكًا لشخصٍ يدعى فيردناند إسيه، وهي فيلا ضخمة أشبَه بالقصر ذات طابعٍ معماريٍّ فريدٍ من

الطراز «القوطي» وهو نوعٌ من أنواع العمارة الأوروبية ويتخلّل جدارها الخارجي والداخلي مجموعةٌ من نقوش الفسيفساء المذهّبة النادرة وبها سقفان بحيث يسمح بالتهوية صيفاً ويغلق السقف الداخلي للتدفئة شتاءً وهو نظامٌ فريدٌ لا يُتبعُ إلّا في دولِ الشمالِ الأوروبيّة.

لكنَّ هذا النظام الفريد لم يكُن هو الشيءُ الوحيد الذي ميَّز هذه الفيلا خصوصًا بعد أن تمَّ تحويلها لمدرسةٍ منذُ زمنٍ طويلٍ، وإنّما كانت الأحداث المُخيفة التي تحدُث بداخلها، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

يتناقل أهالي بورسعيد قصةً مُخيفةً عن الفتاة الشابّةِ التي ذهبت لتتسلَّم عملها كـ (تربية عملي) في المدرسة، لكنّ المسكينة ضلَّت طريقها لدورٍ مُغلقٍ مهجورٍ، وتاهَت هناك ولم تستطِع العودةَ للدورِ الصحيح مرّةً أخرى، واختفت تمامًا!

وظلَّ جميع الموجودين في المدرسةِ يسمعون صوتَ صراخها يأتيهم دومًا من الدورِ الذي اختفت فيه، لكنَّ أحدًا لم يجرؤ على الصعود لتبيُّنِ الأمرِ، خصوصًا وأن الشُجعان ممّن صعدوا، لم يهبطوا أبدًا!

يقولون كذلك أنّها عبرت بوابةً من (بوابات الجحيم) وأنّ كُلَّ من يتجرأ على الصعود لذلك الدور.. يعبُر البوابة ولا يعود أبدًا.

هذا طبعًا بخلاف عشراتِ الشهاداتِ عن رؤية شبحها

يتجوَّل بين الفصول ليلًا، أو يقف خلف نوافِذ الفصول نهارًا، لكنّ القشّةَ التي قَصمَت ظهر البعير كانت اختفاء بضع أطفالٍ تباعًا، وهو الأمر الذي جعل أولياء الأمور يرفضون رفضًا تامًا ذهاب أولادهم لتلك المدرسة، قبل أن تُقرِّر المُحافظة إغلاق المدرسة تمامًا، ليُصبح القصر مهجورًا تمامًا منذ ذلك اليوم.

لكن الأساطير تقول أنّك لو ذهبت إلى هناك في مُنتصف الليل، في ليلةٍ قمريّةٍ اكتمَل فيها القمر.. سترى المُدرّسَةَ المُختفيّةَ تقف خلف زجاج الدور الثالث وتنظُر إليك، ولو كُنت محظوظًا للغايةِ.. ستسمعها تنادي باسمك!

لكن هل تجرؤ على القيامِ بتلك المُغامرة؟

دعوني أعرِف في التعليقات»

بمُجرَّد أن انتهت من قراءة المقال كانت دقَّات قلبها قد أعلنت الحرب على قفصها الصدري، حتى أنّها شعرت كما لو أن صدرها على وشك الانفجار من شدّة وسُرعةِ دقاتِ قلبها، تقطَّع نفسها وهي تقرأ الكلمات واحدةً تلو الأخرى!

فالمقال.. يتحدَّث عن المدرسة التي أوصلت عادِل إليها صباحًا!

هل أعادوا افتتاحها؟

هبطت فورًا لقسم التعليقات لتقرأ بعضها بحثًا عن أيِّ

إجاباتٍ، لكنّها وجدت أنّ عدد التعليقات قد وصل لما يُقارِب الألف تعليقٍ، بعضها يتّهِمُ الكاتِب بتضليل مُتابعيه، وبعضها الآخر يشكر الكاتِب على كتابته للمقال، والعديدون يستغلّون كثرة التعليقات فيعلنون عن منتجاتهم أو عن صفحاتهم، لكنّ تعليقًا بعينه جذب انتباهها وجعلها تتوقَّف عن البحث وتقرأه!

(يقولون يا أ/ عمرو أنّ المدرسة نفسها لها روح، تشعر وتحِسُّ، وأنّها أحيانًا تستغِلُّ جهل البعض بحقيقتها لتخدعهم وتجعلهم يرسلون أبناءهم إليها، وللأسف.. يختفون تمامًا ولا يرونهم أبدًا مرّةً أخرى!)

فتحت صفحةَ كاتِب التعليق، كان من مُحافظة بورسعيد، أي أنّه - على الأرجح - يعلم يقينًا ما يتحدَّث عنه، لكنّها كذلك وجدت الكثير من الصور له مع الكاتِب، لذلك شكَّت قليلًا في كون تعليقه هو أحد تلك التعليقات التي تُكتَب بالاتفاق لتُثير القُراء وتُزيد من حماستهم تجاه المنشورات، حاولت تهدئة نفسها، مدَّت يدها لتلتقط كوب ماءٍ باردٍ كان يقبع في سكونٍ فوق سطح مكتبها، لكنَّ الرعدة التي اجتاحَت نفسها وسيطرت على أعصابها انعكَسَت على يدها، التي بدأت في الارتعاد بقوّةٍ حتى أنّها سكبت نصف الكوب على ملابسها قبل أن ترفع لشفتيها حتى!

حاولت أن تمنح نفسها الأمان، وتمدَّ قلبها بالسكينة والطمأنينة، من الطبيعي والعادي أن نصف المنشورات

الموجودة على مواقِع التواصل الاجتماعيِّ ليست أمورًا حقيقيّةً، وإنّما أشياء كُتِبت من أجل جمع آلاف التعليقات وعشرات آلاف الإعجابات، بحثًا عن شهرةٍ افتراضيّةٍ سخيفة لا تُغني ولا تُسمِن من جوع! هذا بالإضافة لكون صاحِب المنشور كاتِبٌ شهير.. فعلى الأرجَح أنّ المنشور مؤلَّفٌ وليس حقيقيًا، فالرجل يكسب لُقمة عيشه من الكتابة والتأليف!

صدَّق عقلها الأمر، لكنّ قلبها لم يُصدِّقه، ظلَّ وجلًا خائفًا، يعتنِق الارتعاد والتوتُّر خوفًا على ابنها الوحيد وفلذةِ كبدها، ظلَّ القلق يسري في عروقها مجرى الدم، والتوتُّر ينهش أمانها واستقرارها النفسيَّ، لكنّها تماسكت قليلًا، لم تُرِد أن تُسبِّب له الإحراج في يومهِ الدراسيِّ الأولِ، انشغلت بقراءة بعض التقارير القديمة التي لا طائل منها، واستمرَّت في تزجية الوقت حتى انتهى يوم عملها وانتهى يوم عادِل الدراسيِّ الأولِ، أخذت كتابها ورحلت، وضعته على تابلوه السيّارة في عدم اهتمام، انشغلت بقيادة سيارتها، حاولت أن تبتلِع خوفها من الدقائق التي كانت تفصل بين مقرِّ عملها ومكان مدرسته، لكن ما إن وصلت إلى هناك.. حتى تنهَّدت في ارتياح

فقد كان يقف في انتظارها أمام بابِ المدرسة، وبجواره وقفت مُدرِّسَةٌ شابّةٌ صغيرةُ السنِّ وضئيلةُ الحجم تُمسِك بيده، حيَّتها وهي تفتَح له باب السيّارة ليجلس بجوارها،

تبادلت بضع كلماتٍ مع المُدرِّسة لتطمئنَّ عليه قبل أن تصحبه للمنزل.

بدأ عادِل في اللعب بمُكعَّب ريبوك فورَ دخوله السيّارة، مُتجاهلًا المدرِّسة ومُنعزِلًا عن الحوار الذي كان يدور بين والدته ومُدرِّسته الجديدة، حتى وإن كان هو بطلُ هذا الحديث في المقام الأول..

لكنْ هذا هو حاله في الآونة الأخيرة!

***

بمُجرَّد وصولهما المنزل، خلع عادِل حقيبة ظهره، وضعها برفقٍ على الأريكة المجاوِرةِ للباب، تأمَّل والدته وهي تتخلَّصُ من جاكيت بدلتها وتضعه بإهمالٍ على الأريكة المُقابِلة، بدأت في فك أزرار قميصها وهي تتّجه بخطواتٍ أثقلها التعب والإرهاق نحو غُرفتها، قبل أن يبتلعها ظلامُ غُرفتها سألته بصوتٍ عالٍ ليسمعها: «كيف كان يومُك الدراسيُّ الأول؟»

لوى شفتيه وعيناه تمتلئان بالدموع، لكنّه لم ينطِق بكلمةٍ، غابَت في غُرفتها لدقيقةٍ قبل أن تخرج وهي ترتدي تي-شيرت واسِع اعتادَت أن ترتديه في البيت، كان جالسًا على الأرض يحاول تركيب برجٍ من المُكعَّبات، جلست على أريكةٍ قريبةٍ منه وهي تقول: «هل تعرَّفتَ على أصدقاءَ جُدد؟»

رفع رأسه ليتأملها بعينين ترتجِفان وهو يقول: «لا أريد أن أذهب إلى تلك المدرسة مرّةً أخرى»

صدمها ردَّه، لكنّها كانَت دائمًا ما تجد منه ردود فعلٍ لم تتخيَّلها، خصوصًا في تلك الفترة الأخيرة، بعد الطلاق والانتقال إلى هنا، شعرت أنَّ المسكين أصغَر من أن يتقبَّل كُلَّ تلك التغيُّراتِ التي تحدُث في حياته مؤخّرًا، جلست إلى جواره على الأرض، مُتحمِّلة قسوةَ الأرضِ الصلبةِ على ركبتيها الصغيرتين، واللتان لم تعتادا على الشقاء يومًا، لفَّت ذراعها حوله في حضنٍ دافئٍ وهي تقول بحنانِ أم: «ما الذي حَدَث؟ هل ضايقكَ أحدهم؟»

صمت قليلًا، كأنّما هناك ما يمنعه عن الإجابة، مرَّت لحظاتٌ من صمتٍ قرَّرت ألا تدنسها تاركةً له مساحته كاملةً، وحين شعر أنّه مُستعِدٌ للإجابة قال بصوتٍ مُرتعدٍ: «تلك المدرّسةُ مُخيفةٌ»

لثوانٍ قليلةٍ طاف شبح المقال الذي قرأته أمام عينيها، لكنّها طردته بعيدًا وهي ترسم واحدةً من أحنِّ ابتساماتها على شفتيها وهي تقول: «عادِل! لقد كبِرت على هذا الكلام»

هزَّ عادِل رأسه والدموع تحتشِد في مُقلتيه، حاول أن يُدافِع عن نفسه قائلًا: «أعرِف، أنا لا أخاف يا ماما.. لكنّي خائفٌ الآن.. خائِفٌ للغاية!»

صمت قليلًا، سالت دموعه وهو يُنكِّس رأسه أرضًا وهو يُضيف: «لا أحبّها»

سألته في فضولٍ: «هل حدث شيء؟»

رفع رأسه، لم يحاول منعَ دموعه المُنهمِرَةَ من عينيه، كما لم تحاول مُعاتبته، كانت تعرف جيّدًا أنّه يُعبِّر عن مشاعره بهذه الطريقة، وهذا أمرٌ صحيٌّ على أيّ حالٍ، هزَّ رأسه دون أن ينبس بكلمةٍ، مرَّت لحظةٌ تمسَّك فيها بالصمت قبل أن يقول: «ماما.. لا أريد الذهاب إلى تلك المدرسةِ ثانيةً»

اختفت ابتسامتها وهي تقول: «ما الأمر؟»

صمت وهو ينظر لها بعينين دامعتين يتراقص فيهما الخوف، تمسَّك بها بتشبُّثٍ خائِفًا مُلتاعًا، فضمَّته إلى صدرها لتُطمئنه، شعرت برجفة جسده قويةً، يكاد المسكين ينتفِض من شدّةِ الخوف، ربّتت على رأسه وقبّلت جبينه وهي تُكرِّر سؤالها: «ما الأمر؟»

قال وهو يهزُّ رأسه: «تلك المدرسة مُخيفةٌ.. لا أريد الذهاب إليها ثانيةً يا ماما»

شعرت بالغضب يتسلَّل إلى قلبها، حاول كبحَ جماحِ غضبها وهي تقول: «لا تقلق يا عادِل، المدرسة على خيرِ ما يُرام، لا شيء يُخيف هناك»

هزَّ رأسه بعنادٍ وهو يقول: «لن أذهَب إليها ثانيةً»

صاحَت به بغضبٍ: «كفاكَ تدلُّلًا يا فتى، لقد كبرت على هذه الأمور، قُلنا المدرسة على خيرِ ما يُرام، ولا تحاول.. ستذهَب مهما كان الأمر، حتى لو كانت مدرسة أشباح»

تجاهلت انقباض قلبها حين نطقت بآخر كلمتين، وذهبت إلى المطبخ مُتجاهلةً دموعه تمامًا وكأنّه ليس موجودًا!

***

في الصباح لم تجده في فراشه، كاد قلبها يتوقَّف خوفًا قبل أن تُدرِك أنّه جالِسٌ أرضًا بجوار فراشه، يحتضن ركبتيه وهو يضمهما إلى صدره، دموعه تملأ وجهه المصبوغ بالخوفِ، كان يهزُّ جسده ذهابًا وإيابًا وهو يرتجِفُ، شعرت بقلبها ينقبِض ممّا رأته، سألته في لوعةٍ: «عادل.. ما بك؟»

قال من بين دموعه بصوتٍ مليءٍ بالخوف: «لا أريد الذهاب إلى تلك المدرسة يا أمّي.. أرجوكِ»

ولدهشتها.. ذابَت كُلُّ مشاعِر الخوف والقلق على عادِل، وحلَّ محلها غضبٌ ونفاذُ صبرٍ، قالت له في غضبٍ: «لقد تحدَّثنا في هذا الأمر البارِحة، ستذهب إلى مدرستك مهما كان الأمر»

قال وبكاؤه يزداد: «لكن يا أمي..»

صرخت فيه: «اسمع يا عادِل، كُلُّ الأمور لا تسير على

ما يُرام في حياتي مؤخَّرًا، لا تُزِد الأمور سوءًا بدلالٍ فارغٍ، أنا لا أحتمِل ما يدور من حولي.. فلا تُثقِل كاهلي بمشاكِلَ جديدةٍ»

ازداد بكاؤه، حاول أن يتحدَّث لكنّ دموعه منعته، أرادت حسم الأمر فقالت وهي تخرُج: «ستذهَب يا عادِل، هذا أمرٌ لا نقاش فيه، ارتدِ ملابسك.»

لم يملك المسكين سوى أن يُطيع أوامرها على الرغم من خوفه، رعدةِ جسده، والدموع التي ملأت وجهه.

عَلِم أنّهما سيذهبان للمدرسة على أيّ حالٍ، حاول جاهدًا أن يُثنيها عن القيام بالأمر، لكنّها لم تقتنِع بما قال، أجبرته على ارتداء ملابسه رغمًا عنه، لم تنس صفعه على مؤخرة رأسه مرّةً أو اثنتين كوسيلةٍ فعّالةٍ لإقناعه بالقيام بالأمر، والحقيقة.. أنّها كانت وسيلةً فعّالةً جدًا، حين وصلا إلى المدرسة كان لا يزال يبكي، كانت المُدرِّسة الصغيرة تنتظرهما على الرصيف، بمُجرَّد أن وصلا ألقت عليها تحيّةَ الصباح تبادلتا بضع كلماتٍ وديَّةٍ قبل أن تسمَح لها بإمساك يد عادِل لتقوده للمدرسة بنفسها، استأذنها في الاحتفاظ بالمُكعَّب، كادت ترفُض لكنّها تراجعت عن ذلك في اللحظة الأخيرة، سمحت له أن يحتفِظ به هذا اليوم ما لم تُمانِع مُدرِّسته، إلّا أنَّ الأخيرة ابتسمت وأخبرتها أنّ قوانين المدرسة لا تُمانِع ذلك، ابتسم عادِل للمرّةِ الأولى وهو يحتضِن مُكعَّبه بانتصارٍ.

راقبته يرحَل مع مُدرسَّته في سلامٍ، وحين اطمأنّت لدخولهما للمدرسة وسط قطيعٍ من الأطفال الذين يتحرَّكون بطريقةٍ غريبةٍ لم تلفِت انتباهها للمرّةِ الثانية، قبل أن ترحل بسيارتها نحو مقرِّ شركتها.

كان يوم عملٍ مُملٍ كسابقه، احتضنها الملل بمُجرَّد دخولها للمكتب، كادت تنامُ مرتين لولا أن ثِقَل رأسها وهو يتطوَّح جانبًا ظلَّ يعيدها لعالم الواقِع وينتزعها من عوالِم الكسل والأحلام، حاولت أن تجد شيئًا ما لتفعله لتطرح الملل أرضًا وتقضي عليه، بحثت على صفحات مواقِع التواصل الاجتماعيِّ قليلًا فلم تجِد ما يُثير انتباهها، عادت للتيه في شوارع الملل مرّةً أخرى، قادها عقلها دون وعيٍ منها إلى المقال الذي قرأته على الفيس بوك بالأمس، ابتسمت قبل أن يطرق أمرٌ ما على عقلها النصف نائِم ليُثير فضولها.

فتحت موقع البحث (جوجل) وبحثت بالكلمات المفتاحيّة:

«طفل مفقود»

وجدت أطنانًا من النتائِج، حتى لظنَّت أنَّ كُلَّ الأطفال لابُدَّ لهم وأن يُفقَدوا مرّةً أو اثنتين أثناء صِغرِهم وإلّا ما اعتبرهم الجميع صِغارًا، قرَّرت أن تكون أكثر تحديدًا، فكتبت:

«طفل مفقود.. مدرسة.. بورفؤاد»

وظهرت لها عشرات النتائِج التي تتحدَّث عن أمرٍ واحدٍ فقط، الأطفال الذين اختفوا واحدًا تلو الآخر في نفس

المدرسة، دقّ قلبها بعُنفٍ وهي تقرأ اسم المدرسة مرّةً تلو الأخرى، رقص العالم أمام عينيها وهي تُصاب بدوارٍ حادٍّ، قاومت الدوار وضغطت على اسم المدرسة، ظهر لها أكثر من خبرٍ يتحدّث عن المدرسة، كان أهمّهما على الإطلاق هو:

«إغلاق المدرسة لأجلٍ غير مُسمى بعد تكرُّر حالات اختفاء الأطفال»

قرأت تفاصيل الخبر الروتينية، وعد الشُرطة للأهالي مُلتاعي القلوب بالبحث عن أطفالهم والوصول للمسؤول عن الأمر، توزيع الأطفال على المدارس اعتمادًا على التوزيع الجغرافي، وما إلى ذلك من هراءٍ لم يُساعِد قلبها على الهدوء.

شعرت بالقلق يغزو قلبها بلا هوادة، يعاونه الخوف والرعب اللذان دبّا في روحها فأربكاها، وقفت وهي تستنِد إلى مكتبها، تحاول مقاومة رعدةٍ اجتاحَت جسدها فلم ترحَم ضعفه، ودوّار اكتنف رأسها دون هوادةٍ، خرجت من المكتب، سمعت صوت مُدير مكتبها تسألها: «إلى أين؟»

لكنّها لم تُجِبها، هبطت دون وعيٍ، ركِبت سيارتها وسارت بها دون أن تنتبه للطريق، كانت تعرف أنّ قيادتها للسيّارة وهي في هذه الحالة أمرٌ خطيرٌ للغاية، لكنّ أمرًا واحدًا كان يجول في رأسها، أو تساؤلًا لنكون أكثر دقة: هل عادِل

هناك؟

سمعت نفير السيّارات من حولها وهي تحاول السيطرة على نَفَسِها، يعلو صدرُها ويهبِط في توتُّرٍ وخوفٍ، فخلال لحظاتٍ ستعرِف إجابة سؤال.. ربّما غيَّرت من حياتها للأبد!

وعلى أيّ حال.. لن يضيرها الأمر بشيءٍ..

إذا ما كان عادِل في مدرسته بشكلٍ طبيعيٍّ.. فهي فرصةٌ لتلتقي بمُدرّسيه وزُملائه وتطمئن عليه.

وإن لم يكُن هناك..

لا.. لا.. سيكون في انتظارها بالتأكيد، فكُلُّ هذه.. مُجرَّد خُرافات!

***

حاولت الاستعانة بذاكرتها.. فخذلتها!

حاولت أن تطلُب المُساعدة من عقلها.. فتخلَّى عنها!

حاولت أن تصل إلى المدرسة بمُفردها، لكنّها وجدت نفسها بغتةً في شارعٍ فارغٍ تمامًا، تصطَف على جانبيه عدّةُ فلل قديمةٍ لا تزال تُحافِظ على نظامها الغربيِّ، لكن من الواضِح أنّها مهجورةٌ تمامًا، يُعشِّش الظلام داخلها وتُظلِّلها الوحدة تمامًا، أمّا القصر.. فكان يقف شامخًا، يكاد يمدُّ يديه فيلمس السماء عزّةً وفخرًا، لكنّه كان قديمًا موحشًا!

استعانت بجهازِ تحديدِ المواقِع على هاتفها.. فأكَّد لها أنّها تقِف في المكان الصحيح، ردَّد الصوت الأنثوي الآلي: «لقد وصلت إلى وجهتك!»

نظرت من حولها، الشارِع يُشبِه ذاك الذي دلفته ليومين مُتتالين بسيارتها كي تصحَب عادِل إلى أو من مدرسته، لكنّه مُختلِفٌ بعض الشيء، فارِغٌ.. موحِشٌ.. مصبوغٌ بلون الخوف!

تأمَّلت القصر، كان قديمًا، اتّخَذ الغبار من حوائطه وزركشات فسيفسائه مسكنًا يرقد فيه، كان من الواضِح تمامًا أنّ هذا السقف وتلك الحوائِط نَسَت النظافة منذ أمدٍ بعيدٍ، أمّا نوافِذه فرغم أنّها كانت سليمةً إلّا أنّها كانت مُظلِمةً، هذا بسبب الألواح الخشبية التي غطَّتها من الداخِل في محاولةٍ لمنع الفضوليين الموجودين بالخارِج من رؤية ما يدور بالداخِل، حديقته الأماميّة - التي كانت صباحًا خضراء غنّاء - كانت الآن مثالًا لا يُحتذى به في عالم الحدائق الأماميّة، أشجارها ذابلةٌ وأرضها قاحِلة، نَسَت طعم الماء فتشقَّق سطحها، وأهملها المسؤول عن رعايتها فذبل جمالها وذوى سحرها، تقدَّمت للأمام وهي تبتلِع ريقها بصعوبةٍ، كُل شيءٍ يؤكِّد لها حقيقةً واحدةً فحسب!

لكنّها كانت تُنكرها تمامًا، ترفض حتى أن تُفكِّر بها، يقولون أنّ الشيءَ يُصبح حقيقيًا فقط عندما يُفكِّر المرء به، لذا جاهدت نفسها كيلا تُفكِّر في تلك الحقيقة التي أصبح

إنكارها صعبًا للغاية في الوقت الراهِن.

اقتربَت من بوّابة القصر المعدنيّة، وضعت يدها عليها، لسعتها برودة المعدن الصدئ، دفعت البوّابة في خوفٍ وتردُّدٍ، فانصاعت لها دون تفكير، فُتِحَت على مصراعيها وكأنّها تفتح ذراعيها لتستقبلها في حضنٍ لم تُحبِّذه، لكنّ صرير مفصلّاتها القديمة كان كصراخِ تحذيرٍ يطلب منها أن ترحل بعيدًا، أن تترُك كُلَّ شيءٍ وترحل لتبدأ حياةً جديدةً.

دخلت بقدمين مُتردِّدتين إلى الحديقة، خَطَت أولى خطواتها بين ذراعي القصر، تحرَّكت دون وعيٍ أو هدىً نحو بوّابته الأماميّة، كانت مُنشغِلةً بمُشاهدة أشجاره الذابلة التي سقطت أوراقها وجفَّت أغصانها، في مُراقبة الغربان التي وقفت لتُراقبها في صمتٍ دون أن تُصدِر أيَّ صوتٍ على غير عادتها، في مُطالعة الديدان التي توقَّفت عن اللهو أسفل تلك الأشجار وطفقت تُشاهِد تلك التي جرؤت فاقتحمت عزلتهم، ودنَّست وحدتهم.

تحرَّكت كالمسحورة دون أن تعيَ أنَّ قدماها تقودانها نحو باب القصر الأمامي، انتبهت حين اصطدمت قدمها بأولى درجات السلّم الصغير، نظرت إليه في خوفٍ قبل أن تنظر للبوّابة الضخمة، صعدت السلّم، كانت مسلوبة اللبِّ لا تعرِف ما تفعل أو لماذا تفعل!

بوّابةُ القصر كانت ضخمةً للغاية، طويلةً لتسمح بمرور

عملاقٍ وعريضةً لتسمح بمرور زوج ثيرانٍ، كانت موارِبةً قليلًا، حاولت دفعها لكنّها كانت أثقل من أن تتحرَّك، لكنّ الهوّة بين درفتي الباب كانت كبيرة بما يكفي لتسمح بمرور جسدها الأنثويّ النحيل، حشرت نفسها دون أن تهتم ببدلتها التي اتّسخت بالغبار فضاعت هيبتها، وانطفأ سوادها.

بعد قليلٍ من الدفع وكثيرٍ من الجذب استطاعت دخول القصر، ابتلعها ظلامه داخله ووجدت نفسها تقف وحيدةً داخل بهوِهِ الواسِع، الأرض خشبيّةٌ مكوَّنةٌ من عدّةِ ألواحٍ طويلةٍ مُصطفَّةٍ بجوار بعضها البعض، بينما ينقسِم البهو في آخره لسلّمين ملفوفين نحو الأعلى، أحدهما يحتلُّ الركن الأيسر، والثاني يحتل ركنه الأيمن، وبينهما يقف تمثالٌ كان قديمًا يمتاز بالهيبة، ربّما كانت نافورةً كذلك، من الصعب تمييزُ النافورة وسط كُلِّ تلك الأوساخ والقاذورات، يقف الأسد على قدميه الخلفيتين وهو يرفع قامته في الهواء عاليًا، يستعدّ للهجوم بمخالِبه على شخصٍ خفيٍّ لا تراه، وفمه يزأرُ في قوّةٍ كاشفًا عن أنيابٍ مُستعدّةٍ للقتل والتقطيع، كان مهيبًا رغم قذارته، قويًا رغم اتّساخه، ينبض بالحيويّة رغم رخامه الأبيض الباهِت.

وقفت أمامه مشدوهةً بضخامته وقوّته، تخيَّلت لو أنّ هذا حقيقيٌ، لربّما قضى عليها بضربةٍ واحدةٍ من مخالبه، أو لربّما ماتت حتى من الخوف قبل أن يقترِب منها، ارتجَف قلبها حين أدركت أنّها انشغلت في تأمُّل القصر ونَسَت عادِل

ولو لثوانٍ قليلةٍ، لكنّها أدركت أنّها فعلت هذا رغمًا عنها.. كما لو أنّ.. كما لو أنّ للقصر سيطرةً عليها، كما لو أنّه يأمرها فتطيع!

قرَّرت أن تصعد السلّم الموجود ناحية اليمين، كونه الأقرَب منها، لكن بمُجرَّد أن وضعت قدمها على أولى درجاته، حتى سَمِعَت زمجرةَ غضبٍ آتيةً من خلفها، ظنَّته التمثال الرخاميُّ قد عاد للحياة قبل أن تُدرِك أنّه ليس زئير أسدٍ، بل هي زمجرةُ كلبٍ تعرفه جيّدًا، نظرت من خلفها فوجدته يقف في مُنتصف البهو.. هل تبعها إلى هنا؟

نَسَت تمامًا أمر السلّم وهي تتأمَّله، يقف مُكشِّرًا عن أنيابه وسط البهو، ظَهَر بغتةً وكأنّما ظَهَر من عدمٍ، تصاعَد خوفها وازدادت معه سُرعة دقَّات قلبها، وقفت تتأمَّله دون حراكٍ، تخشى أن تتحرَّك فتستفزَّه دون قصدٍ، فيحدثَ ما لا تُحمَد عقباه، لكنّ المخلوق الشرس كان قد ملَّ جبنها بعد لقائهما الأوَل، لذلك قرَّر ألا يُضيع وقته في تأملها مثلما فعل في المرة الأولى، وقبل أن تتخذ أيَّ قرارٍ أو حتى تُفكِّر فيما ستفعل.. بادَر بالهجوم!

وجدته يطيرُ في الهواء بعد أن وَثَب وثبةً قويةً، نَبَح ولعابه يتطاير حوله، لمعت أنيابه على الرغم من الإضاءة السيّئة، لم تشعُر بنفسها إلّا وهي تُلقي بنفسها جانبًا، تفادت هجومه الذي كان ليفتك بها لو أنّ ردَّ فعلها تأخَّرَ ولو لثوانٍ معدودةٍ!

تدحرج جسدها النحيلُ أرضًا وهي تراقبه يحاول التوقُّف على الأرض بعد هبوطه، لكن الغُبار المُتراكِم على الأرضيّة الخشبيّة جعله ينزلِقُ بما يكفي ليفقد السيطرة على نفسه وعلى حركته، كانت تعرف جيدًا أنّه لا وقت لتضيِّعه.. وقفت وهي تركض نحو مخرجها الوحيد من هذا القصر!

نحو البوّابة التي توارَب بابها ليسمَح بدخول شعاعِ شمسٍ خافِتٍ، سمعت صوت أقدامه تضرب الأرضيّة في قوّةٍ وسُرعةٍ وهو يركض خلفها، لم تنظُر له، كانت تعرف أنّها لو نظرت ستفقِد اتزانها، خلعت حذاءها وهي تركض وتركته يسقط أرضًا، داست الأرضية البارِدة بقدمين عاريتين، ضربتهما بكعبين حمراوين لطالما كانا من نقاط جمالها، ركضت نحو الباب الضخم دون توقُّفٍ، تسمع صوته يقترِبُ، كما يقترِبُ الباب، ألقَت بنفسها بين أحضان درفتيه وهي تدفع جسدها للخارِج، آلمها بروز صدرها قليلًا وانقطع زرٌّ من أزرار القميص جرَّاء الدفع لكنّها لم تهتم، كان مُعظَم جسدها قد نَجَح في المرور حين وصل إليها اللّعين، الذي أطبق بأسنانه على طرف بنطالها، نهشه فجذبته بقوةٍ وسُرعةٍ، لينقطِع، سقَط الكلب للخلف بسبب ردّة الفعل، بينما حرَّرت هي قدمها في سُرعةٍ، ألقت بنفسها إلى الخارِج قبل أن ينجَح في الوصول إليها، تدحرج جسدها أرضًا وهي تبتعِد عن الباب الضخم، لكنّ قلبها لم يهنأ بالراحة بعد.. فذلك الوحش سيخرُج من الباب مثلما دخل!

هذا ما توقَّعته..

لكنّ ما لم تتوقَّعه هو باب القصر الذي تحرَّك وكأنّ قوّةً رهيبةً جذبته فجأةً، انغلَق في قوةٍ بدويٍّ كاد يصمُّ أذنيها، تطايرَ الغُبار يمنةً ويسارًا، حلَّقت الغربان بعيدًا وهي ترفرف بأجنحتها في سُرعةٍ وكأنّها تفرُّ من الموت ذاته.

حينها أدركت أنّ الوقت قد حان..

ستعترِف بالأمر.. ستُفكِّر فيه.. ستجعله حقيقيًا..

لكن لا مفرَّ من ذلك..

لا مفرَّ من الاعتراف به..

عادل.. اختفى!

***

(٣)

التفَتَت إليها كُلُّ العيون وهي تدخُل إلى قسم الشُرطة، امرأةٌ كانت حسناءَ قبل أن تبكي فتسيل مساحيق التجميل على وجهها لتُصبح أشبَه ما يكون بجوكرٍ شريرٍ هاربٍ من أحد أفلام نولان لتوِّه، شعرها أشعث رغم نعومته، كانت بدلتها الرسمية السوداء في حالٍ يَرثى لها، قدمها مُمزَّقةٌ، مُتَّسِخةٌ بالغُبار، وقميصها ينقصه زرٌ، تحاول أن تُغلِقه بيدها وهي تُلملِم شعيراتها بعيدًا عن وجهها، وصلت لأقرب عسكريٍّ ووقفت أمامه وهي تقول من بين دموعها: «أريد أن أقابِل المأمور»

قال العسكري بلهجةٍ ريفيةٍ: «المأمور مرةً واحدةً!»

ظهر الغضب على وجهها، ألا تكفيه حالتها كي يحاول تسهيل الأمور عليها؟ لكن قبل أن تحتَدَّ عليه أو يظهَر غضبها، تلقَّفها من أمامه أمينُ شُرطةٍ تبدو عليه الحِكمة، ابتسم بهدوءٍ من خلف شاربه الكثِّ وهو يقول: «خير يا فندم؟»

قالت في سُرعةٍ وقلبها يكادُ يتوقَّف خوفًا: «ابني.. ابني اختفى!»

بدأ أمين الشُرطة في الاهتمام وقد أدرَك أنّه أمام أمرٍ هامٍّ، وليست مشكلةً عائليّةً، حاول تهدئة روعها بابتسامةٍ قلقةٍ وهو يُشير لها أن تتبعه قائلًا: «تعالي معي، واهدئي قليلًا..

لكُلِّ مُشكلةٍ حل.»

هزّت رأسها وهي تبتلِع ريقها بصعوبةٍ، وقبل أن تتبعه، نادتها امرأةٌ عجوزٌ ترتدي عباءةً سوداء وتحمل بيدها عامود طعامٍ، كانت تقِف مُستندةً على حائط بِجوار بابٍ قديمٍ صدئٍ، غالبًا تنتظِر ابنًا أو قريبًا مقبوضًا عليه لتعطيه من الطعام ما يسدُّ جوعه ويُساعده على تجاوز صعوبات حبسه، انتبهت للمرأةِ بلهفةٍ، ظنًّا منها أنّ لديها أيَّ شيءٍ لتُساعدها به، فكّت المرأة دبوسًا من غطاء رأسها وأعطته لها وهي تُشير برأسها إلى مكان الزرِّ الناقِص قائلةً: «استري نفسك يا أختي»

شكرتها ريم بخيبة أملٍ وهي تضع الدبوس مكان الزرِّ الناقِص ليُساعدها في غلق القميص كي لا يظهر جسدها من تحته، سارت خلف الأمين الذي كان ذكيًا فحاول التحدُّث معها في أمورٍ عاديّةٍ غيرِ هامّةٍ في محاولةٍ منه لصرف انتباهها عن الفزع والخوف قليلًا، كان يعرف يقينًا - بسبب خبرته - أنَّ المرء إن فزع تجاهل تفاصيلًا هامّةً لربّما كان من شأنها أن تحلَّ أزمته أو على الأقل أن تُساعِد الشُرطة في سبر أغوار غموض قضيّته، قال لها: «أنا الأمين جلال، تحت أمرك وفي الخدمة في أيِّ وقتٍ يا مدام»

شكرته بخوفٍ وهي تبتعِد قليلًا حتى كادت تلتصِق بالحائِط لتتنحّى جانِبًا سامحةً لطابور مساجين مُقيَّدين بالأصفاد بالمرور من بينهما، ظهر عليها الخوف منهم ممّا

سمح لابتسامةٍ أخرى أن تحتل وجه الأمين جلال، أشار نحو أحد الغُرف المفتوحةِ وهو يقول: «نحن في الطريق إلى النقيب ماركو.. أطيب وألطف نقيب في الداخلية بأسرها، هو النوبتجي اليوم وسيكون قادرًا على مُساعدتك بإذن الله تعالى»

هزَّت رأسها وقد أصبحت غير قادرةٍ على النطق، مسحت دموعها بظهر يدها ممّا زاد من الأمر سوءًا أنّ الكحل قرَّر أن يترك عينها وينطلِق في خطٍ أفقيٍّ نحو اليمين، أشار لها الأمين جلال أن تنتظِر هنا، رأته يطرق الباب ويدخُل، لمحته يقوم بأداء التحيّةِ العسكريّةِ باحترامٍ بالغٍ، سمعته يتحدَّث مع الضابِط الموجود بالداخِل قليلًا قبل أن تسمع النقيب يقول بلهجةٍ آمرةٍ: «دعها تدخُل! ماذا تنتظِر؟ تفضَّلي يا فندم»

أشار لها الأمين لتدلف إلى الغُرفة التي كانت واسعةً من الداخِل، نظيفةً وجيّدة التهويةِ، تحتوي على مكتبٍ خشبيٍّ يجلس خلفه نقيبٌ يرتدي ملابسه الرسمية ويضع غطاءَ رأسه أمامه على المكتب، أشار لها أن تجلِس وهو يقول: «هل تسمحين لي أن أعرض عليكِ مشروبًا؟»

قالت في توتّرٍ: «لا أريد أي شيئًا، أريد ابني.. فقط»

ابتسم وهو يحاول طمأنتها قائلًا: «تأكّدي أنّنا سنفعل كُلَّ شيءٍ من أجل أن يعود ابنك إلى حضنك، لكن يجب أن

تهدئي قليلًا لأنّ هذا سيساعدنا في الوصول إليه بشكلٍ أسرع ليعود إليكِ آمنًا»

قالت في عصبيّةٍ: «لا أريد شيئًا، أرجوك.. ساعدني»

ضغط زرًا في مكتبه فدخل إلى المكتب جنديٌ نحيلٌ أسمرُ البشرةِ، أمرهُ الضابط قائلًا: «أحضر لي قهوتي، من البنِّ الخاصِّ بي، وأحضر للمدام زجاجةَ ماءٍ باردٍ وكوب ليمون»

هزَّ الجندي رأسه وذهب ليُحضِر ما أُمِر به، شعر الأمين جلال بالإحراج كون النقيب قد تجاهله لتوّه، فقال وهو يستعِد للخروج: «سأنتظِر أنا بالخارِج يا فندم»

أمره النقيب قائلًا: «اجلس يا جلال، لربّما احتجنا مُساعدتك في أيِّ شيءٍ»

جلس جلال مُنصاعًا للأمر في خضوعٍ، لكنْ كان مُبتسِمًا بعد أن شعر أنّ النقيب قدّر تواجده من ناحيةٍ، وكونه سيسمَع القصّةَ كاملةً من ناحيةٍ أخرى، حيث أنَّ فضوله كان يحرقه شوقًا لمعرفة ما الأمر بالضبط!

أشار لها النقيب لتبدأ حديثها، قصَّت عليه ما حَدَث كاملًا، ولم تنسَ ذكر منشور الفيس بوك كدلالةٍ لتُثبِت صحّةَ حديثها، ظهرت علاماتُ الدهشة لتحلَّ محلَّ الفضول على ملامِح الأمين جلال، بينما أمسَك النقيب بهاتفه ليتفحَّص به شيئًا قبل أن يقول: «حسنًا، ستذهبين الآن مع الأمين

جلال ليفتَح لكِ محضرًا قبل أن يأخُذ أقوال حضرتك، بعد ذلك سنحتاج من حضرتك صورةً لابنك كي نُطلِق بها نشرةً عامّةً في كُلِّ الأقسام، حرصًا على إيجاده في أقرب وقتٍ مُمكِنٍ.»

أخرجت هاتفها من جيبها وهي تقول: «ليس لدي أيَّ صورٍ الآن، لكن هناك العديد من الصور على الهاتِف»

ابتسم النقيب وهو يقول: «أمامنا مُباشرةً ستوديو تصوير، اذهبي إليهم واطلبي طباعةَ أوضَحِ صورةٍ لديكِ، والأمين جلال سيقوم باللازِم، وتأكَّدي يا فندم أنّنا سنفعل كُلَّ ما في وسعنا من أجل إيجاده في أسرع وقت»

أثلجَ تفهُّمه وأسلوبه اللطيف وأدبه الجمُّ قلبها، فهدأت روحها قليلًا، كادت تقول شيئًا لولا أن قاطعتها طرقات الجُندي، فأمره بالدخول، دلف الأخير مُمسكًا بصينية على يده كانت تحتوي على فنجان قهوةٍ، كوبِ ليمونٍ، كوبَي ماء باردين، وضع الصينية على المكتب قبل أن يوزِّع الأكواب، ويستأذِن بالانصراف، بعد خروجه من الغُرفة أشار لها النقيب أن تشرب كوب الليمون الخاصّ بها، قبل أن يقول الأمين جلال في لُطفٍ: «تعالي معي لعمل المحضر»

خرجت تسير خلف الأمين جلال حتى مكتبٍ آخر، أخرج ورقة بيضاءَ مسطَّرةً، وطَفَق في كتابة المحضر بخبرةٍ وهدوء، طرح عليها بضع أسئلةٍ فأجابت بعضها بقليلٍ من

الثقة، وأجابت البعض الآخر بكثيرٍ من التردُّد، كان هادئًا.. يحاول مُساعدتها، أعاد تعديل بعض الإجابات لتتناسَب مع رسميّة المحضر، وحين انتهى طلب منها الذهاب لطباعة الصورة لإرفاقها بالمحضر تحضيرًا لإطلاق النشرة العامّة سريعًا.

شكرته وهي تُسرِع نحو الاستوديو، لكن بمُجرَّد خروجها من القسم، وقبل حتى أن تصل للشارِع لفت نظرها بعض الأوراق المُلصقة بشكلٍ عشوائيٍّ على جدرانه الخارجيّة، عادت وهي تنظر إليها بفضولٍ وتركيزٍ، كانت طامّتها الكُبرى حين اكتشفت أنَّ هذه المنشورات المُلصقة لم تكُن إلا نشراتٍ مكتوبةٍ عن أطفالٍ مفقودين، الكثيرِ والكثيرِ من الأطفال المفقودين، منهم من فُقِد منذ عشرِ سنواتٍ، ومنهم من فُقِد منذ خمسةِ شهورٍ فحسب، وما بينهما مرّت الأيام واصطفَّت صور المفقودين تباعًا، كان من الواضِح أنّ أحدهم لم يَعُدْ بعد وإلّا لأهتم أحدهم بإزالة المُلصَق الذي يحمل صورته، شعرت بالغضب.. عادت لداخِل القسم، رآها الأمين جلال وهي تنطلِق كسهمٍ مُندفِع أُطلِق من قوسٍ غاضِبٍ نحو مكتبِ النقيبِ، دخلت دون إذنٍ وهي تقول بعصبيةٍ: «ستضمّون صورته لعشراتِ الصورِ في المنشورات المُلصقة على الحوائط والجدران، أليس كذلك؟ ستقومون بعمل محضرٍ صوريٍّ من أجل إثبات الحالة ليس إلّا.. أليس كذلك؟ لكنّكم لن تبحثوا عنه حقًّا، ستضعون

صورته بجوار محمّد، أحمد، ومحمود.. وبالغد ستنضمُ لهم صورةٌ جديدةٌ، لكنَّ طفلًا وحيدًا لن يعود لحضن والديه!»

قال النقيب بهدوءٍ: «أقدِّر غضبك للغاية، وأعدكِ بالقيام بكُلِّ ما في وسعنا، بل وأكثر من ذلك قليلًا من أجل أن نجده وأن نعيده إلى حضنك سالمًا، اتركينا نقوم بعملنا وتأكّدي أنّنا لن نُقصِّر أبدًا»

كان الأمين جلال قد تبعها ووقف خلفها صامتًا، حين أنهى النقيب كلماته، تقدَّم الأمين جلال للأمام خطوةً، أمسك بها من يدها وجذبها للخارج قائلًا: «شكرًا يا سعادة البيه، لقد فهمت المدام الأمر»

هزَّ النقيب رأسه، رمقته ريم بغضبٍ وهي تحاول جذب ذراعها من قبضته القويّة وهي تقول: «كيف تُمسكني بهذه الطريقة.. من سَمَحَ لك بهذا»

همس من خلف شاربه الكثِّ: «أعرف طريقةً لحلِّ مُشكلتك»

نظرت له بدهشةٍ، فقال مُفسّرًا: «أنا أصدقكِ»

بمُجرَّد خروجهما من المكتب ترك ذراعها مُعتذرًا بصدقٍ وهو يُشير لها أن تتبعه، حاولت أن تفهم.. لكنّه أشار لها أن تلتزِم الصمت، تبعته في خنوعٍ إلى أن خرجوا من القسم تمامًا، دخلوا إلى شارعٍ جانبي، تلفَّت حوله وكأنّه على وشك أن يهمس لها بسرٍّ حربيٍّ، وما إن اطمأنَّ من خلوِّ الشارع

تمامًا حتى همس لها بعنوانٍ وتبعه قائلًا: «الحاج يوسف.. هو الوحيد القادِر على مُساعدتكِ!»

تركها ورحل دون أن ينطِق بكلمةٍ أخرى، تاركًا إيّاها أسيرةً في شباك اليأسِ والحيرةِ.

***

منزلٌ صغيرٌ مكوّنٌ من دورٍ واحِدٍ، أو بمعنى أصح.. بقايا منزلٍ كان يومًا ما بناية قبل أن تنهار تلك البناية بأسرها إلّا دورها الأرضي الذي أبى أن يُصبح نسخةً مُكرَّرةً من أقرانه فصمد وحيدًا، أزال الحيُّ أنقاض بقيّةِ العمارة تاركين هذا المنزل وحيدًا وسط الخلاء، كانت تلك المنطقة من قبل حيًّا صغيرًا تابعًا لإسكان شباب من هؤلاء ،متوسطي الدخل، لكنّ خطأً جللًا في الصرف جعلها أشبه بمحطة صرفٍ عملاقةٍ، ما طفقت مواسير الصرف أن تبصق ما بداخلها خارِج البالوعات لتكوّن ما هو أشبه بمُستنقعاتٍ صغيرةٍ من الصرف الصحيِّ، حاول الناس تحمُّل الوضع، لكنّه كان يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، لجؤوا للحيِّ تارةً، وللمُحافَظة تارةً أخرى، خاطبوا المسؤولين، واتفقوا مع مقاولٍ خاصٍّ، لكنّ كُلَّ تلك المحاولات باءت بالفشل، في النهاية.. قرَّر السيد المُحافِظ تخصيص مشروعٍ آخرٍ لهم ونقلهم إليه، وهدم تلك العمارات بأكملها من أجل نبش الأرض وتصحيح مجرى ومسار تلك المواسير، هذا طبعًا بعد مُعاقبة المقاوِل المسؤول عن المشروع، نقلوا السُكّان وهدموا العمارات إلّا

دورًا، صمد في وجه أوناشهم العملاقة وجراراتهم الضخمة، رفض ساكنه أن يترك بيته، طالبهم بهدم البيت على رأسه، صرخ فيهم، بكي أمامه، شقَّ ملابسه أمام أعينهم، لم يفهموا ما يحدُث، قرَّروا تصعيد الأمر، وقبل أن يُصدِر أحدهم قرارً بشأن هذا الساكِن الوحيد ودوره العنيد، حدث تغييرٌ في بعض الكراسي، رَحَل بعض المسؤولين، وأتي آخرون جُددٌ، فبقى الوضع كما هو عليه، وأُغلِق الملف في الوقت الحاليِّ، على وعدٍ بإعادة فتحه مرّةً أخرى.

خَطَت ريم بقدمها من فوق مُستنقعِ صرفٍ صغيرٍ، رمقها كلبٌ شاردٌ كان يشرب منه بتلذُّذ، قبل أن يُقرِّر أنه لا بأس بها، فعاد لشربه في عدم اهتمامٍ، بينما تعلَّقت بها عينا قطٍ أخرج رأسه لتوِّه من كيس قمامةٍ حيث كان يتناول طعامه باستمتاعٍ لولا خطواتها المُتردِّدة.

كانت قد عادَت لمنزلها سريعًا فبدَّلت ملابسها وارتدت حذاءً مُريحًا ليُساعدها على زيارتها، اقتربت من الدور الوحيد الذي وجدته في المنطقة، طرقت بابه بقليلٍ من التردُّد، كانت ترتجِف حزنًا وكمدًا على ولدها الوحيد، تكره نفسها لإضاعة الوقت بدلًا من البحث عنه، لكنّها تُدرِك جيدًا عجزها عن فعل شيءٍ بمُفردها، وللأسف.. لن تتحمَّل لومَ وعتاب محمود لها في حالِ عَلِم بما حَدَث، قرَّرت أن تترك إخبار محمود للنهاية.

طرقت الباب مرّةً أخرى وهي تمسح دموعها بظهر يدها،

لاحظت الرعدة التي تسري بيدها لكنّها حاولت التماسُك، بعد لحظاتٍ طالَت سمعت صوت خطواتٍ بطيئةٍ تقترِب من الباب، فُتِح الباب بعد لحظةٍ وخرج منه رجلٌ في أواخر الثلاثينات من عُمره، أعطاها كيسَ قمامةٍ وأغلَق الباب في وجهها، نظرت للكيس بدهشةٍ قبل أن تتركه يسقط أرضًا وعلامات الاشمئزاز تظهر جليةً على وجهها، طرقت الباب مرّةً أخرى بغضبٍ، مرَّت لحظاتٌ قليلةٌ قبل أن يُفتَح الباب ويخرُج عبره رأسًا غاضِبًا، سُرعان ما اكتسى بالدهشةِ وهو يرى وجهها الفاتِن، سألها بدهشةٍ: «أنتِ لستِ عم محمود الزبّال؟»

سألته بغضبٍ: «هل أنت الحاج يوسِف؟»

هزَّ رأسه وهو يقول: «أجل، من أنتِ؟ هل أنتِ من الحيِّ.. يا ست هانم لقد أخبرتكم من قبل، هدّوه على أمِّ رأسي.. علّني أستريح وأريحكم مني، أما عن الـ..»

قالت سريعًا: «لست من الحيِّ، ولا من أيِّ جهةٍ رسميّةٍ، أنا أمٌّ مكلومةٌ.. أحتاج للحديث معك»

ابتعد عن الباب وهو يُشير لها بيده كي تدخُل، دخلت وهي تتأمَّل المنزل المُظلِم من الداخِل، كان قذرًا، شبه فارِغٍ، يفتقِد للنظافةِ والاهتمام، وبالتأكيد لم تدخُله أنثى منذ حين، لن تطيق أنثى أن تعيش داخِلَ هذه الحظيرةِ يومًا واحدًا!

وقفت حائرةً: أين تجلس؟ قرأ حيرتها فتحرَّك سريعًا

ليُمسِك بعلبةٍ من الكُشري الفاسِد ليُلقي بها بعيدًا، نظّف المكان بيده كيفما اتفق، وأشار لها أن تجلس، خشيت ألّا تجلسَ فيعتبرها إهانةً، فجلست..

سألها عن سبب قدومها فقصّت عليه القصّة بأكملها، استمع إليها باهتمامٍ بالغٍ، لم يندهِش.. لم يرمقها وكأنّها معتوهة.. ولم يتهمها بالجنون، جلس ليستمِع وقسمات وجهه تُنبئُ أنّه يُصدِّقها، أخبرته بما قاله الأمين جلال وختمت حديثها بالتأكيد على أنّها حضرت له من أجل أن يُساعِدها.

تنفَّس بهدوءٍ بعد أن انتهت من حديثها، لكنّه لم يُعقِّب، ساد الصمت لبرهةٍ طالت حتى خَشيت أن تقطعها، لمحت دمعة فكَّرت في أن تتسلَّل من مقلته اليُمنى قبل أن يئدها في محجرها، تظاهَر بالتماسُك وهو يقول: «حدث الأمر منذ عشرِ سنواتٍ تقريبًا، انتقلت إلى هنا من المطريَّة واستلمت عملي الجديد، نقلت ابنتي الوحيدة إلى تلك المدرسة، أوصلتها بنفسي في يومها الأول، كانت خائِفةً.. لا.. بل كانت مرعوبة، طلبت مني أن أسمح لها بالتغيُّب ولو ليومٍ واحدٍ، لكنّني رفضت.. تركتها تواجه قدرها بمُفردها»

صمت قليلًا، هذه المرة ترك دموعه تسيلُ، قال بألمٍ: «ورحلت!»

أضاف: «حين عُدت لأُقلّها وجدت المدرسة قد تحوَّلت

لقصرٍ مهجورٍ، حاولت أن أبلغ الشُرطة، أن أخبر الجميع، أن أطلب المُساعدة من كُلِّ شخص وجدته، لكنّهم سخروا مني.. اتهموني بالعته.. وصموني بالجنون.. ولعنوني!»

ابتلع ريقه وهو يقول وقد اصطبغت كلماته بوجعٍ عرفته جيدًا: «عشرُ سنوات، عشرُ سنواتٍ وأنا أحلم كُلَّ يوم بكابوسٍ مُختلِفٍ عن اليوم السابِق، كابوسٍ أراها تواجه فيه مصيرًا بشعًا، مصيرًا لا تستحقّه، مصيرًا لا يستحقه أيُّ مخلوقٍ على وجه الأرض، ناهيكِ عن طفلةٍ بريئة»

دفن وجهه بين كفّيه وبكي، انتحب بصخبٍ لم يحاول منعه، قبل أن يرفع رأسه بغتةً ويقول: «لذلك أنا أصدقكِ.. أصدقكِ تمامًا.. أعي ألم الفقد وأعرف ما تشعرين به»

شعرت ببريقٍ من الأمل يُنير عتمةَ يأسها وهي تقول: «هل ستساعدني؟»

نظر لها بصمتٍ قبل أن يهزَّ رأسه وهو يقول: «لا!»

صعقتها الإجابة، واكتشفت أن بريق الأمل ما هو إلا نارٌ موقدةٌ أتت لتتأكّد من احتراق كُلِّ سبل الخلاص بداخلها، سألته وصوتها يرتعِد بيأسٍ: «لماذا؟ لم لا؟!»

ظهر الغضب في عينيه اللتين تحولتا فجأةً لجمرتين من لهبٍ وهو يقول: «لأنّني حين احتجت للمُساعدة لم أجد من يمدُّ لي يد العون، لأنّني حين طلبت من الناس العون لم أجدهم»

قالت وهي تبكي: «لكنني مُختلفةٌ عنهم، أقسِم لك أنّني لو كُنت موجودةً.. لمددت لك يد العون وساعدتك.»

قال: «أصدِقكِ.. لكن حتى لو أردت مُساعدتكِ.. لن أستطيع، لقد أخذت عهدًا على نفسي، وأقسمت بحياةِ ابنتي ألّا أغادِر منزلي إلّا ميتًا»

كان فضولها الأنثوي أقوى من أيِّ شيءٍ آخر في هذه اللحظة، لم تستطِع منع نفسها من سؤاله: «لماذا؟»

قال وقد أصابته ثورةُ غضبٍ جعلت لعابه يتطاير في وجهها وهو يصرخ: «كيف سأواجِه هذا المُجتمع الذي خذلني؟ كيف سأنظر في وجوه البشر الملاعين مرةً أخرى؟ كيف سأجرؤ على الحياة بشكلٍ طبيعيٍّ بعدما حدث لها؟»

انهار حزنًا فتكوَّم أرضًا وهو يتحوَّل لبقايا رجلٍ هدَّه الحُزن وهو يُضيف في انكسارٍ: «ماذا سأقول لها حين أراها؟»

حاولت أن تثنيه عن موقفه فقالت: «لكن..»

قال بهدوءٍ وبصوتٍ خافتٍ: «ارحلي..»

صعقتها الدهشة فسألته بغيرِ فهمٍ: «ماذا؟»

صاح بها عاليًا: «اخرجي..»

وقف وهو يُسرِع الخُطى نحو الباب كالإعصار قائلًا: «اخرجي..»

خَشَيت تضخُّم ثورته وازدياد غضبه فخرجت سريعًا، أضاف قبل أن يُغلِق الباب في وجهها: «ولا تعودي.. أبدًا»

سمعت نحيبه وعويله من خلف الباب المُغلَق، عرَفَت أنّ الأمر قد انتهى، هذا رجلٌ كان يومًا يقف في الدنيا قادرًا على مواجهة أعتى صعوباتها قبل أن يهدَّه فقدان ابنته ويحوِّله لبقايا رجل!

سقطت أرضًا على الجهة الأخرى من الباب، وتركت لدموعها العنان، بكت وكأنّها تستمِد حُزنها من ألمه، حال الباب الخشبي دون تلامس أجسادهما لكنّه لم يَحُلْ دون تشابِك مشاعرهما، بكيا الفقد والخوف، صرخا الألم والحُزن.

بكت طويلًا وصرخت كثيرًا إلى أن شعرت أنّها قادرةٌ على الوقوف مرّةً أخرى، وقفت.. كانت ثملةً بفعل الحُزن، ترنَّحت ألمًا قبل أن تُخرِج هاتفها من جيب بنطالها، بحثت بعينين ملأتهما الدموع عن رقم (محمود) إلى أن وجدته بصعوبةٍ.

أدركت أنَّ وقت الحلِّ الأخير قد حان، استعدَّت نفسيًا لكُلِّ ما هو آتٍ، وعدت نفسها بتحمُّل ألم عتابه ووجع لومه، تنفَّست بعُمقٍ.. وضغطت زرَّ الاتصال.

***

أتاها صوتُ محمود عبر أثير الهاتف ليزيد من حيرتها

وربكتها، حاولت أن تتذكّر ما أرادت أن تُخبرَه به، بدا من صوته أنّه ما زال في العمل، قال بغير تركيز: «ألو.. ريم؟»

حاولت أن تتماسَك لكنّها انهارَت وهي تقول: «ألو يا محمود»

شعر بصوتها وعَرَفَ أنّها ليست بخير، ربّما فرَّقَت بينهما المسافات، لكنّ القلوب لا تفترِق وإن زاد البِعاد، سألها: «هل أنتِ بخير؟»

هزَّت رأسها يُمنةً ويسارًا قبل أن تتذكَّر أنّه لا يراها، فقالت بصوتٍ مُتهدِّج: «لا.. لا يا محمود.. أنا لست بخير!»

قال وقد زاد اهتمامه: «ما بكِ؟»

قالت من بين دموعها: «ابنك يا محمود، ابنك ضاع مني»

ظهرت علامات التعجُّب والدهشة لتسكُن نبراتَ صوته وهو يقول: «ماذا تقولين؟»

زادت دموعها وهي تقول: «ذهب إلى مدرسته الجديدة ولم يعُد، عادِل ضاع منّا يا محمود!»

قال بدهشةٍ: «مدرسته الجديدة!»

صرخت فيه: « عادِل ضاع يا محمود، هذا ليس الوقت المُناسِب للتعجُّب والدهشة «

سألها بغضبٍ عارمٍ: «هل جُنِنتِ يا ريم؟»

شعرت بالغضب يتضاخَم كالسيل ليُطفئ نيران غضبها وهي تقول: «بل يبدو أنّك الذي جُنِنت! محمود.. هل تسمعني جيّدًا! ولدك الوحيد ضاع!»

قال بغضبٍ تامٍ: «يبدو أنكِ جُنِنتِ تمامًا يا ريم! ما تقولينه هو..»

قاطعته في ثورةٍ: «أعرِف جيدًا ما أقول، وبما أنّك لا تهتَم كما يبدو جليًّا، ولأنّ الشُرطة تأبي التصرُّف سريعًا، فسأتصرَّف بمُفردي.»

قال سريعًا: «ريم، لا تتحركي من مكانك، أنا قادِمٌ في الطريق»

«لن أنتظِر أكثر من ذلك، يجب أن أجد عادِل»

قال والخوف يصبغ صوته: «لا تتحركي من مكانكِ، أنا قادِمٌ يا ريم، أعطني عنوانك وعنوان تلك المدرسة.»

أبلغته بالعنوانين سريعًا، أمرها ألا تتحرَّك من مكانها، لكنّها تجاهلت ما قاله تمامًا، أغلَقت الخطَّ وفكرةٌ واحدةٌ تدور في رأسها بلا توقُّف، يجب أن تعود إلى تلك المدرسة المشؤومة من جديد، وأن تجد عادِل.. ابنها الوحيد!

***

(٤)

وقفت أمام القصر، حكَّت رأسها وهي تنظُرُ عبر البوّابة الأماميّة، تنفَّست بعُمقٍ وهي تنَقِّلُ ناظريها من القصر إلى السماء، حكَّت أنفها وهي تمسح دمعةً انسابت عبر مقلتها اليُمنى، تحرَّكت للأمام بخطواتٍ مُتردِّدةٍ، وصلت إلى بوّابة القصر الحديديّة، أمسكت البوّابة بيدها وهي تُحرِّك عينيها بلا هُدىً في الحديقة الأماميّة، وضعت اصبعها في فمها، عضَّت طرفه دون أن تنتبِه لقُنبلة الألم التي تفجَّرت منه، تنفَّست بعُمقٍ قبل أن تهزَّ رأسها وهي تعود للسيّارة سريعًا، وقفت بجوار السيّارة، استندت بيديها إلى سطحها، أسندت رأسها على يديها لبرهةٍ، قبل أن تعتدِل، فتحت باب السيّارة وكادت تركب، لولا أنّها تراجعت في اللّحظة الأخيرة، كان باب سيارتها مفتوحًا، لم تهتَم بإغلاقه، إذ يبدو أنّها لم تحسم أمرها بعد، حكَّت رأسها ثانيةً، قبل أن تتأكّد من أنّ شعرها لم يترك الرباط المطاطيَّ الذي يربطه بقوةٍ، خلعت حذاءها، شعرت ببرودة الأرض تحت قدميها، لكنّها لم تهتَم، ألقت حذاءها داخل السيّارة دون اهتمامٍ، أمسكت بالكتاب الموجود على تابلوه السيّارة، لم تعرِف لماذا فعلت ذلك، على الأرجَح احتاجَت لشيءٍ من أشياء والدها كي يمدّها بالشجاعة الكافية لاتخاذ القرار، أغلقت الباب بقوةٍّ، وتحرَّكت بقدمين عاريتين نحو القصر، قبل أن تتوقَّف في مُنتصف الطريق، تراجعت عدّةَ خطواتٍ للخلف، قبل أن

تتوقَّف، نظرت للسماء ثانيةً بتيهٍ، أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها وهي تنظر فيه دون هدف، لم تكُن تبحث عن شيءٍ مُعيَّن، كانت تحاول ترتيب أفكارها، تحاول صرف التشتيت الذي احتضن عقلها فأطفأ بريقه، حكَّت أنفها ثانية قبل أن تصل للبوّابة الأمامية، رمقت السيّارة بنظرةٍ أخيرةٍ ثم عبرت البوّابة الحديديّةَ وهي تدلف إلى حديقته الأمامية التي كشفت عن وجهها الحقيقيّ، موحشةٌ كانت، تفتقِر إلى الاهتمام والتشذيب، وصلت إلى بوّابته الضخمة، لكنّها كانَت مُغلَقةً، تذكَّرت ما حَدَث في المرّةِ الأخيرة، حاولت فَتح البوّابة الضخمة، لكنّها أبت أن تنصاع لها، بدا أنّها لن تُفتَح ولو وقفت أمامها ألف عامٍ، وبعد عدّةِ محاولاتٍ قليلةٍ.. وصلت إلى قناعةٍ بأنّ هذه البوّابة لن تستجيب لمحاولاتها المُستمِّرة، وأنّ عليها أن تجد وسيلةً أخرى لسبر أغوار هذا القصر، عليها أن تجد طريقةً أخرى لدخول هذا القصر اللّعين.

بدأت تدور حول القصر وهي تبحَث عن مكانٍ تدخُل منه، لكن كُلُّ نوافِذه كانت مُغلقةً تمامًا، كُلُّ مداخله كانَت مسدودة، دارت حول القصر مرّةً أو اثنتين قبل أن تتنهَّد في يأسٍ تامٍ، يبدو أنّه حين لفظها آخرَ مرّةٍ.. أبى أن يستقبلها مرّةً أخرى!

كادت تيأس تمامًا، فقدت الأمل بنسبةٍ كبيرةٍ، كانت على وشك أن تستلِم، لولا أن رأتها في اللحظة الأخيرة،

شجرةٌ ضخمةٌ تقف بجوار أحد حوائِط القصر في ثباتٍ، تتفرَّع فروعها في عشوائيّةٍ تامةٍ بعد أن افتقرَت للتشذيب والتهذيب، لكن هذه كانت المرة الأولى التي تشعُر بها ريم أنّ الكون يبتسِم لها، لأن أحد فروع تلك الشجرة كان قد ضلَّ طريقه بعيدًا عن الفروع الباقية ليقترِب بما فيه الكفاية من نافذةٍ علويّةٍ من نوافِذ الدور الثاني، النافِذةُ الوحيدةُ التي كانت مفتوحة، زجاجها مكشوفٌ دون ألواحٍ خشبيّةٍ من خلفه، ودون تردُّدٍ.. كانت قد حَسَمَت أمرها.

هذه هي وسيلةُ دخولها لذلك القصر المهجور!

تسلَّقت جذع الشجرةِ بصبرٍ وهي تحاول تجاهُل الرعدة التي انتابَت يديها وقدميها، كانت تبحث بعينيها عن بروزات واضِحةٍ في جذع الشجرة، ندوب وتجاعيد رسمها الزمن فيها، تُمسِك ببروزٍ وتضع قدمها في ندبةٍ، بدأت تتسلّق الشجرة في صبرٍ وخفّةٍ، ورغم أنّها مرّتَها الأولى، إلّا أنّ الحظ كان حليفها في مُهمتها الصغيرة، وببراعةٍ شابها الكثير من التوفيق، وصلت إلى الغصن الذي ترجوه، هزَّته بيدها مرتين لتتأكّد من قدرته على تحمُّل ثِقَل وزنها، وإن كانت ضئيلةً خفيفةً بشكلٍ يجعل أرقّ الأغصان وأنحفها قادرةً على حملها بسهولةٍ ويُسرٍ، جلست فوق الغصن وبدأت تنقِّل جسدها بحرصٍ وهي تتحرَّك لمسافاتٍ صغيرة بعرض الغصن، حتى شارفت على الوصول للنافذة، ابتسمت وهي تتحرَّك برفقٍ، اهتزَّ الغصن من تحتها حين اقتربت

من نهايته، نظرت للأسفل وهي تبتلِع ريقها بصعوبةٍ، كانت تخاف المُرتفعات، ارتعدَ جسدها للغاية حين نظرت للأسفل، هاجمتها فكرةٌ مُخيفةٌ رأت نفسها فيها وهي تسقُط من علٍ، أغلقت عينيها وهزَّت رأسها بقوةٍ في محاولةٍ لطرد تلك الفكرة.

عادت لتنظُر نحو النافذة، لكنّها لم تكُن خاليةً هذه المرة، امرأةٌ ضخمةٌ قاسيةُ الملامِح كانت تقف فيها، ترتدي عباءةً سوداءَ من تلك العباءات التي تُميِّز نساء الريف المصري، تربط رأسها بغطاء رأس قديمٍ قذرٍ كان ورديَ اللّونِ يومًا ما، كانت تنظُر أرضًا قبل أن ترفع رأسها ببطءٍ شديدٍ، وهي تبتسِم بسُخريةٍ قبل أن تقول: «نحن في انتظارِكِ»

كان صوتها مُرعِبًا، شهقت وهي تشعُر بالجزع، اختلَّ توازنها، سقطت عن الغُصن لولا أن تمسَّكت به بيدٍ واحدةٍ، شعرت بنوبة هلعٍ تستعِد لمُهاجمتها، آلمتها يدها التي تحمُّل وزنها وهي تتأرجَح في الهواء، عضَّت على شفتها السُفلى وهي تحاول السيطرة على ألمها، أنَّ الغصنُ في احتجاجٍ، بدا وكأنّه يُفكِّر في الانهيار، رفعت جسدها للأعلى، استنفَرَت كُلَّ قواها، وهي تمدُّ يدها بصعوبةٍ في محاولةٍ يائسةٍ للوصول للغُصن بيدها الحُرَّة، وهو الأمر الذي لم تفلَح فيه، كان ثِقَل جسدها قد بدأ يؤلِم ذراعها المسكين، حاولت مرةً أخرى، هذه المرّة أرجَحَت جسدها للأعلى بقوةٍ وأمسكت بالغُصن، كادت تصرُخ في سعادةٍ وهي تتمسَّك بذراعيها

سويًّا، وهو الأمر الذي خفَّف آلام مفصل كتفها للغاية، لولا صرخةَ الغُصن وشرخٍ ضخمٍ يُصيبه عند نُقطة الالتقاء بينه وبين الجذع!

كان الشرخ يتوسَّع ويزداد بشدّةٍ، شهقت وهي تتحرَّك سريعًا بذراعيها نحو النافذة، أسرعت وهي تتنقَّل بيديها عبر الغُصن، طاردها الشرخ بلا هوادةٍ، تمنَّت لو أنّه ينتظِر قليلًا، أن يمنحها القليل من الوقت، لكن ليس كُلُّ ما يتمناه المرء يُدرِكه، تنقَّلت بذراعيها عبر الغُصن، اقترَبت بشدّةٍ من النافِذة، مدَّت يدها نحوها، لمستها بطرف اصبعها، لكنَّ المسافة لم تكُن كافيةً لتُحكِم قبضتها على طرفها، تأرجَحت مرةً أخرى وهي تشعُر بالغصن يُفكِّر في الانهيار، مدَّت يدها بشدةٍ وهي ترجو أن تُمسِك بها هذه المرة، لكنّها وقبل أن تمسّها حتى.. لم يعُد الغُصن قادرًا على التمسُّك، انهار وسقط بها من علٍ!

تمامًا كما كانت تخشى!

في اللحظة الأخيرة وصلت لطرفِ النافِذةِ الحجريِّ، أمسكته بيدها بقوةٍ وهي تترك الغُصن يسقُط أرضًا ليتهشَّم تحت الشجرة، تمسَّكت بالطرف الحجريِّ بيدها الأخرى، رفعت جسدها للأعلى وهي تُلقي بثِقله للأعلى قبل أن تُلقي بجسدها للداخِل، تهشَّم زجاج النافِذة تحت ثِقل جسدها وهي تسقط أرضًا، هذه المرّة لم يخذلها جسدها، تأرجَح عبر النافِذة وسقطت أرضًا، بكت بشدةٍ وهي تُمسِك بذراعها، لم

تعرِف هل هي تبكي فرحًا لنجاحها في مُهمتها أو ألمًا من شدّةِ الوجع الذي يسري في جسدها بأكمله، تذكّرت فجأةً السيّدة الضخمةَ التي رأتها من قبل، انتفض جسدها وهي تعتدِل سريعًا وتتراجَع زحفًا على مؤخرتها لتستنِد إلى جدار القصر الداخلي، مسحت الغُرفة بعينيها سريعًا.. لكنّها لم تجِد لها أثرًا!

هل كانت تتخيَّل؟ هل أثّر ما قرأته على قواها العقليّة؟ هل توهَّمت الأمر؟

أسئلةٌ كُثُر هاجَمت عقلها المُنهَك، لكنّ الإجابات لن تأتيها بمُفردها، وقفت وهي تنفُض الغُبار عن ملابسها، قبل أن تتّجه نحو باب الغُرفة المُغلَق لتبدأ رحلتها الجديدة، لم تُدرِك أنها تطأ الزجاج بقدميها العاريتين، لم تشعُر بشظايا الزجاج وهي تجرح باطِن قدميها، مشت دون أن تسمع صوت الزجاج وهو يتهشَّم لقطعٍ أصغرَ تحتها، وصلت للباب وأمسكت بمقبضه دون أن ترى الخطواتِ الداميةِ التي خلَّفتها على طول الطريق من النافِذة وصولًا إلى الباب، تنفَّست بعُمقٍ وهي تلُفُّ مقبض الباب استعدادًا لبدء رحلةٍ جديدة.

رحلةُ البحث عن ولدها المفقود.. والبحث عن إجاباتٍ للأسئلة التي احتلَّت كيانها بأكمله.

***

كان باب الغُرفة يخفي خلفه ممرًّا مُظلِمًا، خَشيَت ريم أن تخرُج خصوصًا بعد أن هاجمتها بقايا الهلع الناتِج عن رؤيتها للسيّدة الضخمة في النافِذة، مدَّت يدها إلى جيب بنطالها لتُخرِج هاتفها، فتحت كشَّافه وهي تنيره، جاء ضوءه ضئيلًا غير قادرٍ على سبر أغوار الظلام، لكنّه كان كافيًا ليُبدِّد لها من الظلام بضع سنتيمترات تكشِف لها عن مصير خطواتها القليلة القادِمة.

حرَّكت الكشَّاف يمنةً ويسارًا، لكنّها لم تجد سوى صفوفٍ من الأبواب المُغلَقة التي تحيط بالممر المليءِ بالغُبار والحصى، تحرَّكت نحو أقرَب الأبواب لها، مدَّت يدًا مُرتعدةً نحو مقبضه، أدارته في رفقٍ فاستجاب، انفتَح ليكشِف لها ما يُخفي خلفه، كانت غُرفةً صغيرةً، بدا أنّها كانت خاصةً بأحد غُرف النشاط، على الأرجح كانت الغُرفة الخاصة بالنشاط الزراعي لأنّها كانت تحتوي على أصص نباتات ماتت وذبلت منذ أمدٍ بعيدٍ، ناهيك عن بضع عشرات من الأوعية الزجاجيّة القديمة التي اتخذها الغُبار سُكنى له.

تركت الغُرفةَ بعد أن مسحتها بكشَّافها سريعًا لتتّجه لأخرى، كانت غرفةً تستخدم كمكتبةٍ صغيرةٍ، احتوَت على بضع خزاناتٍ خشبيّةٍ اصطفَّت تباعًا لتحتضن رفوفها عشرات الكُتب القديمة التي عَبَث بها الزمن فاصفرَّت أوراقها وانثنت أطرافها، مالت إحدى تلك الخزانات في إرهاقٍ على المجاورة لها التي تحمَّلت وزنها فلم تنهار

مثلها، بينما تناثرت الكُتب أرضًا دون اهتمامٍ، تركت تلك الغُرفة وهي تذهب للتي تليها، توالَت الغُرف الفارِغة واحدةً تلو الأخرى، ومع كُلِّ غُرفةٍ تكشف لثام غموضها، كانت شوكةٌ جديدةٌ تُغرَس في قلبها وهي تُدرِك حقيقةً هامّةً..

لم يطأ أحد تلك الغُرف منذ سنينٍ طويلةٍ، والغُبار المُتراكِم على محتوياتها خير شاهِدٍ على ما تقول، رأت غُرفًا إداريّةً خاصّةً على الأرجَح بالمُدرسين، الأخصائيّة الاجتماعيّة، السكرتارية، الوكلاء، الناظِر، غُرفة المُدير، بعض الفصول القليلة المليئة بالمقاعِد المُهشَّمة والسبورات القذِرة، كادت تصل إلى نهاية الممرِّ، دون أن تجد ولو شيئًا واحدًا يثير اهتمامها أو يملأ قلبها بالأمل في هذه المدرسة المهجورة.

مدَّت يدها إلى مقبض الغُرفة قبل الأخيرة، كان ساخنًا بشكلٍ غيرِ طبيعيٍّ، سحبت يدها سريعًا وهي تُطلِق صرخةَ ألمٍ خافتة، جعلت حركتها المُفاجئة الأخيرة هاتفها يسقُط من يدها، من حُسن حظها أنّه سقط على وجهه، كان كشّافه موجّهًا للأعلى، مما صبغ الممرَّ المُظلِم بقليلٍ من الضوء.

انحنَت لتحضره، لكنّها بمُجرَّدِ أن أمسكت به، شعرت بخطواتٍ بطيئةٍ تقترِب من خلفها، نظرت خلفها سريعًا لتراها، نفس المرأة الضخمة التي رأتها من قبل في نافذة القصر، كانت تقف في بداية الممرِّ، تُمسِك بيدها حبلًا صغيرًا نهايته ملفوفةٌ على رأس جديٍ أسود اللون، لكنّ هذا لم يكُن الشيء الذي أثار خوفها.

كان الجديُ الأسود يقف على قدميه الخلفيتين ويسير بجوار السيّدة بشكلٍ مُرعِبٍ، وقفت السيّدة في مكانها، تلاقت عيناهما للحظةٍ، قبل أن تبتسِم المرأة الضخمة ببطءٍ شديدٍ، تركت الحبل من يدها فتدلّى أرضًا، نظرت للجدي الذي بادلها النظرَ قبل أن يلفَّ رأسه ببطءٍ للأمام لينظُر لريم في تحدٍ.

بدأ يتحرَّك نحوها في خطواتٍ سريعةٍ، بدأت أبواب الغُرف تُغلَق بعُنفٍ بمُجرَّد مروره بجوارها، وكأنّما تخشاه وتهابه، حركته غير المألوفة كانت مُخيفةً، بدأت سُرعته تزيد تباعًا، وصوت إغلاق الأبواب يعلو بالتدريج، كانت تُراقِبه وهو يقترِب منها دون أن تقوى على الحركة، دقَّ قلبها بقوةٍ، شلَّها الخوف تمامًا، راقبته وهو يقترِب منها في سُرعةٍ، وقف أمامها ورفع قائميه الأماميين للأعلى، شهقت في خوفٍ وهي تُغلِق عينيها، انتظرت أن يهوي بقوائمه على صدرها ليُهشِّمه أو حتى يخترقه بحوافره، لكنَّ شيئًا لم يحدُث، طال الانتظار أكثر من الطبيعيِّ، فتحت عينيها.. فلم تجد شيئًا!

من أمامها كان الممرُّ المُظلِم في انتظارها، لكنَّ السيّدة والجديَ الأسود لم يكُن لهما أيُّ أثرٍ، وكأنّهما لم يكونا هنا منذ لحظاتٍ، كانت لتعتقِد أنّها تتخيَّل أو حتى تتوهَّم لولا الأبواب المُغلَقة التي تراصّت على جانبي الممرِّ، كانت مُتأكِّدةً من أن تلك الأبواب كانت مفتوحةً منذ لحظات،

مسحت الممرَّ بعينيها بعد أن استعانَت بالكشَّاف ليُبدِّد سطوة الظلام قليلًا، لكنَّ الممرَّ كان خاليًا للغاية، نظرت لمقبض الغُرفة التي تقف بجوارها، قبل أن تتذكَّر الحرق الذي أصابها منذ قليل، تشجَّعت قليلًا وهي تمدُّ يدها نحوه مرةً أخرى، هذه المرة كان باردًا لطيفًا، أدارته فاستجاب، كاشفًا عن غُرفة موسيقى صغيرة، لكنّها كانت فارِغةً بدورها، فحصتها سريعًا قبل أن تفحص الغُرفة الأخيرة بدورها، وحين انتهت منها تأكَّدت أن الأمر قد انتهى!

الطابِق الثاني فارِغٌ تمامًا، لا يوجد به أيُّ أثرٍ للحياة!

انتهى الممر بسلّمٍ دائرٍ قادها نحو الطابِق السُفليِّ، الذي كانت قد رأته من قبل أثناء زيارتها الأولى، وعلى عكس الطابِق الثاني كانت أبواب غُرفه مفتوحة، لم تستغرِق الكثير من الوقت في فحصها، كانت غُرفًا خاليةً، إلّا من بضع بقايا أشياءٍ كانت يومًا فصولًا دراسيّةً قبل أن تُهجَر فتموت!

انتهت من فحص غُرف الطابِق الأول وهي تقف دامعةَ العينين في يأسٍ، صرخت بصوتٍ عالٍ: «أين أنت يا عادِل؟»

لكنّها لم تجد ردًّا سوى صدى صوتها الحزين يعود إليها بعد لحظاتٍ قليلةٍ، أمسكت رأسها وهي تصرُخ بيأسٍ تامٍّ، سقطت أرضًا على رُكبتيها، بكت وهي تدفن وجهها بين كفيها، صرخت باسمه، نوّحت بألم فقده، لطمت وجهها حزنًا

على غيابه، لكنَّ شيئًا لم يتغيَّر، ظلَّ القصر مهجورًا أمام عينيها، بقايا مدرسةٍ حوَّت من قبل ضحكات أطفالٍ ودفقاتِ علمٍ، قبل أن تتحوَّل لأطلالٍ مُهدّمة!

وقفت في ضعفٍ وخنوعٍ، سارت نحو باب القصر، أمسكت بمقبضه وهي تستعِدُّ لفتحه من الداخِل، أدارت رأسها والدموع تملأ عينيها لترمق القصر بنظرةٍ أخيرةٍ، نظرة بدّدت الدموع وضوحها، لفَّت وجهها، أمسكت المقبض وتشبَّثت به بقوةٍ استعدادًا لفتحه قبل أن تسمع الصوت الخافت من خلفها!

تـك.. تـرك.. تـك.. تـرك!

مسحت دموعها سريعًا وهي تنظُر للخلف بخوفٍ، خشيت أن تجد المرأة الضخمة أو الجدي الأسود المُخيف، لكنَّ ما وجدته جعل قلبها يتوقَّفُ للحظةٍ، كان مُكعَّب ريبوك الخاصَّ بعادِل يسقُط فوق السلّم ببطءٍ، يقطع درجات السلم وهو يسقُط قبل أن يختلَّ توازنه ليهوي من جانِب السلم أرضًا، تدحرَج إلى ما تحت سور السلم، في ركنٍ مُظلِمٍ من أركان القصر الخفية، دقَّ قلبها بقوةٍ.. استعادت الأمل في إيجاد عادِل، كان يُمسِك بهذا المُكعَّب بين يديه آخرَ مرّةٍ رأته فيها، حين سلَّمته بيدها إلى المُدرِّسة الصغيرة التي قادته إلى داخل هذا القصر اللّعين، ركضت سريعًا نحو الركن المُظلِم الذي اختفى فيه المُكعَّب.

أمسكت بالمُكعَّب وهي تعضُّ شفتيها حسرةً على ولدها المفقود، احتضنت المُكعَّب وهي تنوح بصوتٍ عالٍ، قبل أن تقِف رأته بين الظلام، أخرجت هاتفها وفتحت كشّافه مرةً أخرى، وجّهت الكشَّاف إلى المكان الذي سقط فيه المُكعَّب، ورأته.. مقبضٌ صغيرٌ في الأرض، مقبضٌ لبابٍ سريٍّ اختفي بين الغُبار والحصى، لم تكُن لتراه أبدًا لولا سقوط المُكعَّب في هذا المكان تحديدًا.

هل كانت تلك صُدفة؟

شكَّت في الأمر، لم تكُن من هؤلاء المؤمنين بالصُدف، كانت من الآخرين.. المؤمنين بالإشارات!

لذا استقبلت الإشارة، وفهمتها.. فهِمت الهدف وعرَفَت المطلوب.

أمسكت بالمقبض وتنفَّست بعُمقٍ قبل أن تجذبه بقوةٍ لتفتحه!

***

(٥)

جلس محمود وعلامات الضيق والغضب تبدو جليّةً على وجهه، زفر في ضيقٍ وهو ينظُر إلى ريم التي جلست على المقعَد المُقابِل له في تحدٍّ، كانت تبتسِم في سُخريةٍ، تتعمَّد استفزازه، لأنّها تعرِف أن فتيله قصيرٌ للغاية، كما تعرف يقينًا أنّها مُخطِئةٌ فيما ارتكَبت، والطريقة الوحيدة التي فكَّرت فيها لقلب الموقِف رأسًا على عقِب كانت في استفزازه ودفعه لارتكاب خطأٍ ما أو قول شيءٍ لا يصحُّ قوله كي تستغِلَّ فعلته لتحويل الموقِف لصالِحها، بينما كان هو يفهم ما تحاوِل فعله، لذلك حاول قدر إمكانه أن يكبَح جماح غضبه، ويصُب من ماء حكمته فوق نيران ثورته لتخمَد قليلًا، ابتسمت في سُخريةٍ وثقةٍ وهي تنظُر له، عضَّ شفته السُفلي في ضيق لكنّه لم ينطِق.

بعد لحظاتٍ سَمِع كلاهما صوتَ خطواتِ أقدامٍ بطيئةٍ تقترِب من غُرفة الصالون التي يجلسان بها، فُتِح الباب ليكشِف عن والد ريم، الذي يحمِل في يده سجادة الصلاة الخاصَّة به، وهو يمسَح عن وجهه الذي ما زال مُبلَّلًا بعض الشيء من أثر الوضوء، وَقَف محمود وهو يمدُّ يده له ليُصافِحه، تبسَّم الرجل وهو يمدُّ يده لمحمود قائلًا: «أهلًا أهلًا بزوج ابنتي المُحترم.»

احمرَّ وجه محمود خجلًا، حتى وهو قادِمٌ لمنزل الرجل

غاضِبًا، وقد طَرَد ابنته من منزلها قبلها بليلةٍ، إلّا أنّ الرجل يستقبله جيدًا، جَلَس الرجل وهو ينظُر لمحمود مُتسائلًا: «هل ترغَب في قليلٍ من الشاي؟»

هزَّ محمود رأسه وهو يقول: «لا داعي للـ..»

قاطعه الرجل مازحًا: «نحن بيت كرمٍ يا بني، لن أتحدَّث معك قبل أن تشرب شيئًا ما»

هزَّ محمود رأسه موافِقًا، أمر الرجل ابنته أن تصنع كوبين من الشاي له ولزوجها، انصاعَت صاغرةً.. تحرَّكت نحوَ باب الغُرفة فناداها والدها: «ريم»

نظرت إليه، فقال في لينٍ: «من فضلك أغلقي الباب خلفك، ولا تدخلي قبل طرقه لو سمحتِ»

هزَّت رأسها وهي تتحرَّك لتُغلِق الباب، وابتعدت نحو المطبَخ في خطواتٍ سريعةٍ لتصنع كوبي الشاي الذي أمرّ بهما والدها، كان قلبها يدُقُّ في عُنفٍ، هي مُخطئة وتعرف جيدًا أنّها مُخطِئة، لكنّها لم تتوقَّع أن تتفاقَم الأمور بهذه الطريقة، طردها محمود من المنزل، صحيح أنّه قام بتوصيلها إلى منزل والدها البارِحة، ولم يرحَل إلّا عندما اطمئن أنّها بخير، لكنّها لم تبت ليلتها في منزلها! في فراشها!

وهي المرة الأولى التي يحدُث بها ذلك!

تساءلت عمَّا يحدُث الآن داخِل غُرفة الصالون، قرَّرت أن تُسرِع قليلًا في عمل الشاي، وأن تذهَب لتسترِق السمع من خلف الباب الخشبي قليلًا قبل أن تطرق الباب، على الأقل لتستعِد نفسيًا لما هو قادِم.

في غُرفة الصالون بدأ الرجل في التسبيح على سبحته التي لا تُفارِق يده وهو ينظُر لزوج ابنته، الذي طفق ينتظِر الوقت المُناسِب ليقول: «عمي..»

قال الرجل فجأة: «لا..»

انعقد حاجبا محمود، قال في غير فهمٍ: «أنا لم أنطِق بكلمةٍ بعد يا عمي»

قال الرجل في هدوءٍ: «أيًا ما ستقوله.. أنا أرفضه قلبًا وقالِبًا»

ظهرت علامات الغضب لتحلَّ محل علامات الدهشة فوق ملامِح محمود وهو يقول: «لكنّها مُخطِئةٌ يا عمي»

قال الرجل وهو يبتسِم: «ابنتي لا تُخطئ»

وقف محمود وهو يقول: «لا.. ابنتك مُخطِئةٌ يا عمي، لقد..»

قاطعه الرجل وهو يُشير له أن يجلس: «مهما كان ما فعلته، فالأمر لا يستحِق أن تطردها من منزلها، أنا لم أعطِك ابنتي كي تطردها في مُنتصف الليل»

جلس محمود وهو يقول: «هذا أخطأت فيه، سأعترِف بذلك.. لكن..»

قال الرجل بصوتٍ رخيمٍ: «ابنتي لا تُخطئ»

فكَّر محمود طويلًا، قبل أن يقول: «حسنًا، أنت في مقام والدي، لذا سأذعَن لحديثك وأقبل ما تقول أيًّا كان»

ابتسم الرجل وهو يقول: «أشكرك يا ولدي، والآن.. اشرب شايك حين يأتي وانصرف، وسنتصِل بك حين تكون ريم مُستعِدّةً لتقبَل اعتذارك»

ارتفع حاجبا محمود بدهشةٍ وهو يقول: «اعتذاري؟ ظننت أنك سـ..»

توقَّفت أصابع الرجل عن المرور فوق حبّات السبحة، نظر محمود مطوَّلًا، الذي قال: «حسنًا يا عمي، كلامَك أمرٌ على رقبتي، سأنتظر اتصالًا أرجو ألّا يتأخَّر»

ابتسم الرجل وهو يقول: «حسنًا يا بني والآن.. لنشرب الشاي سويًا»

في تلك اللحظة سمعا طرقاتٍ خافتةٍ على الباب، قال الرجل بلهجةٍ آمرةٍ: «ادخلِ»

دخلت ريم وهي تحمل صينيةً معدنيّةً، وقف فوقها كوبا شايٍ يتصاعَد بخارهما عاليًا، كانت مُبتسمةً، مُنتفِخة الأوداج، شعر محمود بالضيق فوقف وهو يقول: «سامحني

يا عمي.. يجب أن أرحل»

قال الرجل: «والشاي؟»

بضيقٍ زفر وهو يقول: «لتشربه ريم، بعد اذنكم»

أمر الرجل ابنته: «افتحي الباب لزوجكِ»

قال محمود وهو يفتح الباب ويخرُج: «أعرِف مكانه.. بعد اذنكما»

ساد الصمت قليلًا بعد رحيل محمود، أشار الرجل لابنته أن تأتيه بكوب الشاي، وضعته أمامه فنظر إليها مطوّلًا قبل أن يقول: «إذًا أنتِ سعيدة بما سمعتيه؟»

تظاهَرت بعدم الفهم وهي تقول: «سمعته؟ لم أسمَع شيئًا يا أبي»

تنهَّد الرجل وهو يقول: «أخذتِ كُلَّ طباع والدتكِ الراحلة، بدايةً من عدم قدرتها على الكذب، مرورًا بالعصبيّة الغير مُبرَّرة، وانتهاءً باستراق السمع!»

شعرت بالحرجِ كونه عَرِف سرها الصغير، لكنّ ابتسامتها ظلَّت تحتَل وجهها، نظر لها والدها قليلًا قبل أن يقول: «أنتِ مُخطِئة!»

كادت تعارِضه أو تُجادِله، لكنّها نظرت في الأرض وهي تقول: «أعرِف»

حكَّ والدها أنفه وهو يقول: «سأنصركِ دائمًا على أيِّ شخصٍ، ظالمةً كُنتِ أو مظلومة، لن أسمَح لأيِّ شخصٍ في عالمنا هذا أن يقول لكِ ما لا يُرضيكِ أو ما يُضايقكِ، لكن عندما نكون بمُفردنا.. عليّ أن أفعل أنا ذلك، عليّ أن أتلو على آذانكِ ما لا يُرضيكِ وما لا ترغبين في سماعه»

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ، قال: «ستذهبين لمنزلكِ اليوم، وستعتذرين لزوجكِ، قولي له أنّكِ أدركتِ خطأكِ، وأنّني حاولت منعكِ من الذهاب إليه كي يعرف قيمتكِ، لكنّكِ ذهبتِ إليه بكامِل إرادتكِ»

هزَّت رأسها صاغرةً، قام ليجلس بجوارها، احتضنها فاستكانت بين ذراعيه، همس في أذنها: «ظالمةً أو مظلومةً»

هزَّت رأسها وهي تبتسِم، كانت سعيدةً أنّه نصرها على محمود، شعرت أنّه سندٌ لا يُستهان به، وكذلك شعر محمود.. الذي سيُفكّر ألف ألف مرةٍ قبل أن يُغضِبها ثانيةً، باتَت ليلتها في فراشها وبجوار زوجها، لكنَّ قلبها ظلّ مُعلّقًا بأبٍ لم يَجُدْ الزمان بمثله قطّ!

لكم كانت محظوظةً به!

***

أعادها صريرُ مفصّلات الباب إلى عالمنا بعد أن انتشلها من ذكرياتها، تصاعدت الرائِحة الكريهة بمُجرَّد أن فُتِح

الباب، وكأنّها كانت تنتظِر الهروب من ذلك القبو المُغلَق، لم يكُن قبوًا بما تحمله الكلمة من معنى، بل كان أقرَب ما يكون للبدروم الذي كان يُستخدمُ كمخزَنٍ للأشياءِ والحاجياتِ غيرِ الضرورية، أعلَن الظلام عن سيطرته التامَّة منذ أن فُتِح الباب، لكنّ الصمت، رفيقه الأثير، أبى أن يُشارِكه سيطرته على الموقِف، صوت همهماتٍ كثيفةٍ غيرِ مفهومةٍ شقَّ الصمت شقًا ليصِل إلى أذني ريم، التي ارتعَد قلبها وهي تسمع الصوت الذي بدا مألوفًا بشكلٍ ما، لكنّ عقلها افتقَر إلى التركيز اللازِم ليُميِّزه.

اعتادَت عيناها على الظلام قليلًا، فاستطاعَت رؤية سلّمٍ دائريٍّ يهبط للأسفل غارِقًا في كنف الظلام، تردَّدت قليلًا قبل أن تحسِم أمرها وتُغلِق كشَّاف هاتفها، بديهيًا لكُل فعلٍ.. ردُّ فعلٍ، ولكُل صوتٍ.. ما يُسبِّبه، لذلك.. فعلى الأرجَح هناك مسؤول عن هذه الهمهمات، أو نظرًا لكثافة الصوت.. مسؤولون.

وضعت قدمها اليُمنى على أول درجات السلّم، كانت خشبيةً بارِدةً، كان هذا آخر ما قد يشغل بالها في الوقت الحاليِّ، تنفَّست بعُمقٍ وهي تهبط درجةً تلو الأخرى، حين وصلت لمُنتصَف السلّم رأت شُعاع ضوءٍ بُرتقاليٍّ آتٍ من بعيد، يُبدِّد سطوة الظلام ويجبرها على الابتعاد عن مساره، صعدت سلمتين للأعلى في سُرعةٍ وهي تنشج بعُنفٍ، انقطع نفسها، وضعت يدها على صدرها وهي تحاول أن تهدئَ من

روعه قليلًا، بعد عدة لحظاتٍ من التنفُّس العنيف استطاعت أن تُسيطر على الأمور قليلًا، هدأت أنفاسها وانخفضت وتيرة صدرها، عادَت لتستكمِل مسيرتها في الهبوط، وهو الأمر الذي بدا أنها اعتادته مؤخرًا، بعد عدّة دقائِقَ وبضع درجاتٍ، لامست قدمها العارية أرض البدروم الصلبة البارِدة.

كان البدروم على شكل حرف (L)، أما الإضاءة البُرتقالية فكانت تأتي من نهايته، دون أن ترى ريم مُسبِّبها، كونه يتوارى بعيدًا عن ناظريها، خلف جدارٍ اسمنتيٍّ باهِت يُعيق رؤيتها.

مدَّت يدها أمامها لتُزيح شبكة عنكبوتٍ احتلَّت نصف الطريق، ازدادت دقَّات قلبها بعُنفٍ حين رأت رعشة يدها، وقفت في مكانها، أغلقت عينيها قليلًا، حاولت أن تهدأ، أن تُسيطِر على مشاعرها قليلًا، وهو الأمر الذي نَجَحَت فيه - نوعًا ما - قبل أن تفتَح عينيها، وتسير برفقٍ إلى نهاية البدروم.

استندت بيدها على الحائِط في محاولةٍ بائِسةٍ لتستمِد منه أمانًا يُدفِئ قلبها وينير روحها الوَجِلة قليلًا، سارَت حتى وصلت إلى نهاية الحائط، الآن.. تنحني الغُرفة يمينًا في ممرٍ واسِعٍ، وقفت خلف الحائِط، ألصقت ظهرها به، وبحرصٍ شديدٍ.. أمالت رأسها قليلًا لتنظُر إلى ما يحدُث بالداخِل.

وهنا.. فوَّت قلبها دقَّةً، وشعرت ببرودةٍ عارمةٍ تجتاح جسدها بأكمله!

فأمام عينيها، وقف حشد من السيدات في مُنتصف الغُرفة، جميعهن يرتدين العباءات السوداء القديمة، ضخمات الأجساد، قبيحات الوجوه، مُنفراتٍ للغاية.

كانت وجوههن مُتجهِّمةً، على الرغم من كونهن يطوِّحنَ رؤوسهنَّ يمنةً ويسارًا، وهنّ يتمتمن بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ، في البداية تسمَّرت ريم في مكانها، خاصمها الفهم فلم تعِ ما تفعله هؤلاء السيدات، غير أنّها بقليلٍ من التركيز.. فَهِمت!

ما يحدُث أمامها الآن كان عادةً مصريةً أصيلةً منذ زمنٍ بعيدٍ، قبل أن تندثِر، كونها تعتمِد على الخرافات والجهل بشكلٍ أساسيّ، ما يحدُث أمامها الآن كان (زار)!

تقف السيدات المُتشِحات بالسواد في الممرِّ الذي اتسَع ليحتويهنّ رغم ضخامتهنّ، كان الممرُّ مُضاءً بعدّة مشاعِلَ مُعلَّقةٍ على الحوائِط، تتشبَّث بها حُليٌ معدنيَّة لتُثبِّتها إليه، تتراقَص نيران تلك المشاعِل بالتزامُن مع الرقصة المجنونة التي ترقصها تلك النسوة، يهززن رؤوسهن يمينًا ويسارًا، وكأنّهنّ تطوِّحنَ أفكارًا لا يرغبن في سُكناها لأدمغتهن في الهواء، كانت عيونهن مُغلَقةً فلم يروها، مُلتّفاتٍ على شكل دائرةٍ غير مُنتظِمةٍ حول رجلٍ فارِع الطول، يقف مُنتصِبًا في

مُنتصف الدائرة وكأنّه محورها، يولي ريم ظهره، مما جعلها لا تستطيع تبيُّن ملامِحه بشكلٍ واضحٍ، لكنّه كان يرتدي جلبابًا أبيض اللون، وعلى عكس تلك النسوة.. كان جلبابه نظيفًا لم تمسسه قذارة يُغطي رأسه بعمامةٍ ضخمةٍ لفَّها حتى كادت تُماثِل حجم رأسه، تباينت ألونها فلفتت نظر ريم بسهولةٍ، رفع يديه عاليًا في الهواء، فانزلقت عشرات السِبَح ذات الحبّات المُستديرة حول رسغه ويده، تراقَصت أطرافها في الهواء مثلما تتراقَص النسوة من حوله، تردّد صدى تضارب حبّات السبحة ببعضها البعض في فضاء الممر، كان يُمسِك بكتابٍ قديمٍ في يده، شعرت ريم وكأنها رأت هذا الكتاب من قبل، حاولت أن تتذكّر أين رأته مُسبقًا لكنّ الرجل صرخ بغتةً: «أيا خيتعور!»

شعرت ريم أنّ تلك الكلمة مألوفةٌ حتى وإن لم تفهم لها معنى، كانت شبه مُتأكّدةٍ من أنّها سمعتها من قبل، لكنّها لم تكُن في مزاجٍ رائقٍ لتتبيّن معناها أو تبحَث عن مُرادِفها، كان ما يحدُث أمامها يأسِر لُبها ويشغل بالها عمّا سواه، توقفت النسوة تمامًا عندما سمعن كلمة الدرويش ذو الرداء الأبيض، وضع الدرويش الكتاب أرضًا في مُنتصف الدائرة، بدأن فجأةً في هزِّ رؤوسهن على عكس المُعتاد، كما بدأت الدائرة تدور عكس عقارِب الساعة هذه المرة، عكسن الطريقة التي يدُرن بها، وعكسن كذلك الطريقة التي يهززن بها رؤوسهن، بدأت الدائرة تتحرَّك إلا واحدةً، ميّزتها ريم

وضعت يدها على فمها لتعترِض طريق شهقةِ فَزَعٍ كادت تخونُ شفتيها لتَفِر هارِبةً، شاهدت نافورةَ الدمِ وهي تنبثِق من الجرح العرضيِّ الغائِر، لم يهتَم الدرويش للدماء التي صبغت جلبابه الأبيض وعمامته الملوَّنة، كما لم يهتَم كذلك لزخَّات الدماء التي تناثرت على وجهه، التفَّ ليُسلِّم جُثة القطِّ المسكين الذي توقَّف عن الحركة للمرأة الضخمة، والتي تسلَّمتها منه بقدسيَّة واحترامٍ لا مثيل لهما، قبل أن تنحني أرضًا وهي تُمسِك برأس القطِّ وتجذبها للخلف، كي توسِّع الجرح، انحنت أرضًا لتبدأ في توجيه الدماء أرضًا داخِل رمزٍ شيطانيٍّ مُخيفٍ كان محفورًا في أرض البدروم، لكن ريم لم تُميِّزه من قبل بسبب انشغالها بالجنون الذي يدور أمامها، لم يفُتها أن ترى الدرويش وهو يلعق شفتيه ماسحًا عنهما الدمَ بلسانه قبل أن يمتصَّه بتلذُّذٍ وهو يبتسِم.

ترقرقت الدموع في عينيها وهي تكتِم صرخة فزعٍ اعتمرَت في صدرها، عادت المرأة الضخمةُ للركن المُظلِم الذي أتت منه بالقطِّ الأسود، غرقت في ظلامٍ دامسٍ، عادت النسوة الأخريات لأداء حركاتِ الزار التقليدية، التقطت إحداهنَّ ما يُشبِه الدُفَّ، وبدأت تدقّه بكفِّ يدها، تعالى صوت قرعِ الطبول في المكان يدوّي الآذان ويُقلِق الأرواح، عادَت المرأة الضخمة الأولى بشيءٍ لم تتبيَّنه ريم، أعطته للدرويش كما سَبَق تمامًا، رفع يديه عاليًا وهو يصرُخ بصوتٍ جهوريٍ يفوق صوت الطبول عُلُوًّا: «ارضَ عنا وبارِكنا يا خيتعور»

ميَّزَت ريم ما يحمله بفضل ضوءِ نيران المشاعِل، كان غرابًا أسودَ اللونِ، مربوطةٌ قدماهُ بحبلٍ أبيضِ اللون، وأجنحته مقصوصةٌ خوفًا من فراره، وكما فعل في سابِقه، ذبحه وهو يعطيه للمرأة غير عابئٍ بالدماء التي لوّثت جلبابه ووجهه، هبطت به نحو الرمز المحفور في الأرض وبدأت في مَلئِهِ بالدماء، حين تأكَّدت ألقَت بجُثّته أرضًا بجوار جُثّة القط، انتفض المسكين مرّةً أو اثنتين قبل أن يهدأ تمامًا ويكُفَّ عن الحركة.

تكرَّر الأمر عدَّة مرَّاتٍ، ما بين كلبٍ أسود، خنزيرٍ أسود، وشاةٍ سوداء، وتعالى صوت استجداء الدرويش للمدعوِّ خيتعور بأساليبٍ مُختلِفةٍ، وفي كُلِّ مرّةٍ تسقي المرأة هذا الرمز تزداد دقّات قلبِ ريم دون سببٍ مُقنِعٍ، تنكتِم أنفاسها، تشعُر بثِقلٍ يجثُم على صدرها، يقشعرُّ بدنها، وتنتصِب الشُعيرات الصغيرة الموجودة على مؤخرة عنقها، لكنّها لم تكُن تعرِف أنّ ما مضى أخفُّ وطأةً على نفسها ممّا هو آتٍ.

تصاعَد صوت الدرويش، ردَّد الممرُّ صداه، رفع يديه عاليًا وهو يبتهِل لخيتعور الذي ما زالت ريم لم تكتشِف بعد من أين تعرِفه، واستمرَّ الزار من حوله، ازداد قرع الطبول وملأ المكان بأكمله حتى صمَّ أذنيها، لمحت الدرويش يُشير برأسه إلى المرأة الضخمة، فانفصلَت عن دائرة النسوة الغائِبات عن التركيز، والمُنهمِكات في هزِّ رؤوسهن والدوران السريع، تحرَّكَت إلى رُكنِ الممرِّ المُظلِم، غَرِقَت

في الظلام قليلًا قبل أن تظهَر وكأنّها بُعثَت من قلبه لتُتمِّمَ مراسِم الزار، هذه المرة لم تعُد بشيءٍ واحدٍ فحسب!

بل كانا اثنين!

جذبت حبلًا أسود اللون مربوطًا حول رقبة جديٍ أسودٍ مُخيف، التمعت عيناه في ظلامِ الممرِّ بلونٍ أحمرَ غريبٍ، أمسكت زمام الحبل بيدها اليُمنى، بينما كانت تحمِل في يُسراها لفافةً من القماش الأبيض المُتسِخ، يتحرَّك ما بداخلها حركات عنيفةٍ مُتشنِّجةٍ، لكنّ ريم - بسبب الظلام وقلّة الإضاءة - لم تتبيَّن كُنهه، لكنّها توقَّعت ما سيحدُث، سيذبَح الدرويش ذلك الجدي ومن ثمَّ سيذبح أيًّا ما كان راقدًا في كنف اللفافة، أو سيعكس الترتيب، ولم تُكذِّب المرأة خبرًا..

وكأنّها تقرأ أفكار ريم، أو تتبِّع نصًّا كُتب من قبل، أعطت اللفافة للدرويش، رفعها عاليًا وهو يرتجِفُ بنشوةٍ غريبةٍ، تهدَّلَت أطرافها فسقطت كاشفةً عمّا تحتويه، كان طفلًا رضيعًا مربوطًا بقسوةٍ، تقبَع لفافة من القُماش المُهترئ داخِل فمه لتكتِم صراخه وبكاءه، ألقى الدرويش باللفافة بعيدًا وظلَّ مُمسِكًا بالطفل وحده، كان سكينهُ يقطر دمًا وكأنّه يشعُر بنشوةِ الدرويش، نظر للمرأةِ نظرةً ذات مغزى، فَهِمَت ما يُريد وفطِنَت لما يقصِد، مدَّت يدها له بطرف الحبل، أمسكه وجذب الجدي نحوه، وقبل أن تفهَم ريم ما يحدُث، فعل الدرويش أغرَب شيء مُمكِن!

فكَّ الحبل عن رقبة الجديِّ، وقف أمامه لثوانٍ قليلةٍ قبل أن يركع له في خشوعٍ، مرَّت بضع ثوانٍ قبل أن تحتذي به النسوة فتفعلن ما فعل، وخلال ثوانٍ معدودةٍ.. كان الجميع راكعين أمام الجديِّ، الذي انتصَب واقفًا على قائمتيه الخلفيتين، تصاعَد صوت ثُغاء الجديِّ ليشُق صمت المكان، وقف الدرويش أمامه لكنّه لم يجرؤ على رفع ناظريه عن الأرض، ثغى الجديُ مرّةً أخرى فهبط الدرويش على رُكبةٍ واحدةٍ وهو يمدُّ كفي يديه المبسوطتين أمامه، وقد رقد السكين فوقها في خشوعٍ بدوره، أمسك الجديُ بالسكين، لم ترَ ريم كيف أمسَك به أو تناوله، لكنّه كان قد فعلها على أيِّ حال، مدَّ الدرويش كفيه المبسوطتين ثانيةً، هذه المرّة كان الطفل يتشنَّج فوقهما وقد نال منه الخوف كثيرًا، أمسك الجدي بالرضيع بيده الأخرى، نفر بقوةٍ قبل أن يذبَح الطفل بضربةٍ قويةٍ، انفجرت نافورةُ هائلةُ من الدماء، فغَرَ الجدي فمه وارتشف منه القليل قبل أن يضعه فوق كفَي الدرويش الذي وقف وأعطاه للمرأة سريعًا، بدأت بسقي الرمز الموجود أرضًا، انتبهَت ريم لأنّ عيني الجديِّ تزدادان احمرارًا والشرُّ يكاد يخرُج منهما ليحتَلّ العالَم.

كان كُلُّ ما يحدُث فوق طاقتها على الاحتمال، انهارَ جهازها العصبي فلم يعُد يتحمَّل، صرخَت بلوعةٍ وفزعٍ، توقَّف عقلها عن التفكير لحظةً، لكنّها كانت كافيةً كي يتّخِذ جسدها هذا القرار، انتبه لها الجميع، ظهرت لهم

جليةً، وكأنَّ الظلام انقشع عنها هي تحديدًا ليكشف ستر مخبئها، تعلّقت بها الأعيُن، والتمعت غضبًا تحت نيران المشاعِل، شعرت بالكراهية التي ملأت المكان فجأةً، ازداد خوفها، وكاد قلبها المسكين يتوقّف هلعًا، تراجعت للخلف في بطءٍ وهي تهزُّ رأسها يمنةً ويسارًا في رفضٍ تامٍ، أبَت أن تُصدِّق ما يحدُث، ألقى الجدي بالسكين أرضًا، ثغى بصوتٍ عالٍ وهو يُشير نحوها، كانت رسالةً مفهومةً حتى ولو لم تكُن تفهم ثُغاء الجديان!

تحرَّكت النسوة نحوها، بينما التقط الَدرويش السكين من الأرض وعيناه تلتمعان في شهوةٍ غريبةٍ، اتجه الجميع نحوها، غيَّبها الخوفُ عن وعيها للحظاتٍ، شلَّ الخوف تفكيرها كما شلَّ الهلع جسدها، لكنّها أفاقَت.. أفاقَت وبدأت تركض للخلف سريعًا، صرخت النسوة وهنّ يتبعنها، كُنّ أثقل منها وزنًا وأبطأ منها حركةً، ممّا منحها أفضليةً للتحرُّك سريعًا نحو السلّم، وصلت له سريعًا، تعلّقت في حاجزه الخشبي قبل أن تنظُر للخلف نظرةً سريعةً، اقترين منها، أسرعت في تسلُّق درجات السلّم، وطأتها بأقدامٍ أثقلها الهلع والخوف، تسلّقتها مثنى وثُلاث ورباع، كانت في مُنتصف السلّم تقريبًا عندما سَمِعَت صوت أقدامهن تطأ أولى درجاته، سمعت صياحهنَّ وأنينهنَّ، نظرت للخلف رغمًا عنها، ساقها الفضول فأطاعته، كُنَّ يتصارعنَ على أولوية الصعود، يدفعنَ بعضهنَ البعض، تخمشن وجوه

الأخريات في توحُّشٍ، جذبت إحداهُنَّ أخرى من شعرها فعضتها، ضربت واحدةٌ منهنَّ الأخرى في قصبة قدمها فأدخلت الأخرى اصبعها في عينها ففقأتها، تصارعن سويًا كسربٍ من الوحوش الغاضِبة، ابتسمت في توتّرٍ، كان هذا من مصلحتها وفي صفّها، لكنّها لم تنتبِه أين تضع قدمها، أسكرتها نشوةُ شعورها بالتفوُّق فأفقدتها تركيزها، لم تنتبه أنّها تطأ الهوَّةَ الموجودة بين درجتين من درجات السلّم، هوَت قدمها في الفراغ فسقطت على السلّم لتصطدِم به، انتبهَت لها النسوة فكففنّ عن الصراع، صعدن السلّم في تتابُعٍ وهجومٍ، كُنَّ أشبه بقطيعٍ من اللبؤات الجائِعات اللاتي يركضن نحو فريسةٍ عاجِزةٍ عن الدفاع عن نفسها، حاولت ريم أن تُخرِج قدمها من بين درجتي السلّم، لكنّ فخذها كان قد حُشِر، حاولت وهن يقترِبن، جذبته بقوةٍ وهي تصرُخ، استجاب لها أخيرًا وهُنَّ على بُعد درجتي سلمٍ، فكَّرت أن تهرب لكنّها حسمت أمرها، هنّ أقرب لها من باب البدروم، وقفت في مكانها مُستسلِمةً!

عندما اقتربَت منها أولهنَّ، رفعت قدمها وركلتها في مُنتصف صدرها، اختلَّ توازن المرأة بسبب سُرعتها واندفاعها، فسقطت على زميلاتها وتكوَّمنَ فوق بعضهنَّ البعض، استغلّت ريم الفُرصة فهرعت صاعدةً السلّمَ الخشبيَّ الدائِر في سُرعةٍ وخوفٍ، هذه المرة كانت تصبُّ جام تركيزها على وطءِ الأماكِن الصحيحة، بعد عدّةِ درجاتٍ

وصلت إلى باب القبو، مدَّت يدها وحاولت أن تفتحه، لكنّه أبى!

رفض أن يُفتَح، حاولت مرّةً تلوَ الأخرى، وقفت النسوةُ وبدأن في مُهاجمتها وهن يصرخن بغضبٍ شابته الوحشيّة، دفعته بيديها لكنّه لم يستجِب، دفعته بكتفها بكُلِّ ما أوتيت من قوةٍ لكنّه رفض الانصياع لها، ابتلعت ريقها ببطءٍ وهي ترى أول تلك النسوة تصل لها، مدَّت يدها أمامها وهي تصرُخ بوحشيةٍ، أعلنت ريم استسلامها، أغلقت عينيها، وشعرت بيدٍ تُمسِك بذراعها!

***

(٦)

ارتَفَع جسدها في الهواء، اتّسَعَت عيناها في دهشةٍ وهي تتلفَّت من حولها، ارتجَف جسدها بشدّةٍ، نظرت إليهنَّ فرأتهنَّ يمددنَ أيديهن في محاولةٍ بائسةٍ للإمساك بها، كادت واحدةٌ منهن تنجَح في مسعاها، لكنّ جسدها ارتَفَع قليلًا ليعلو فوق يدها، مدَّت أخرى يدها وهي تستعِد لخمش قدمها بأظافرها الطويلة القذِرة، لكنّها طوَّحت قدمها في الهواء وركلتها في قوّةٍ وهي تلف جسدها لتبتعِد عن أيديهن، سقط جسدها لترتطِم بالأرضِ بقوةٍ، لم تهدأ لتعرِف مُنقِذها، زحفت بعيدًا على يديها وقدميها، وهي تسمَع باب البدروم يُغلَق من خلفها، زفرت بعض الخوف الذي سَكَن قلبها وهي تنظُر لمُنقِذها، قبل أن تشهَق في دهشةٍ، فأمام عينيها كان يقف آخرُ شخصٍ توقَّعت رؤيته في هذا المكان!

اطمئنَّ أن باب البدروم مُغلَقٌ جيدًا، قبل أن ينظُر لها وهو يسأل: «هل أنتِ بخير؟»

تقافَزت الدهشة بين حروفها وهي تقول: «يـ.. يو.. يوسف؟»

تقدَّم نحوها وهو يمدُّ لها يده، تلقفتها، ساعدها على الوقوف، نفضت الغُبار عن ملابسها والخوف عن صدرها، طال الصمت وسيطَر على دهشتها، سألها مرةً أخرى: «هل أنتِ بخير؟»

قرَّرت أن تُقايِض سؤاله بسؤالٍ: «ماذا تفعل هنا؟»

تطلَّع إليها قليلًا قبل أن يقول: «رأيتُ ألّا أتركك وحيدةً، قرَّرت أن أتبعكِ في محاولةٍ لمُساعدتكِ، إذا ما كُنت قد أهملت في حقٍّ واحدةٍ، فعليّ ألّا أخيِّب ظنَّ الأخرى»

شكرته بابتسامةٍ دافِئةٍ وهي تمشي ببطءٍ نحو باب البدروم المُغلَق، سألها بنفادِ صبرٍ: «هل أنتِ بخير؟»

انتبهَت لكونها قد تجاهلت سؤاله مرَّتين من قبل، فقرَّرت ألا تُطيل انتظاره أكثر من ذلك، قالت في خجلٍ: «أنا بخير، والفضل لك»

رمقها دون أن يُعلِّق، وهو يجلس على ركبتيه بجوار باب البدروم، انحنى فألصَق أذنه بالأرض، كادت تنطِق بشيءٍ ما.. لكنّه التفت لها بغتةً وهو يقول: «صهِ!»

أطاعته دون نقاشٍ، على غير عادتها، فنظراته الحادّة كانت كافيةً تمامًا لفرض سطوته على ريم، أنصَت السمع قليلًا قبل أن يرفَع رأسه وينظر إليها قائلًا: «لا أسمع أي شيء!»

انتبهَت للأمر لحظةً، بعد أن غرِقَت في امتنانها له لإنقاذها، فسألته بفضولٍ: «كيف عرفت مكاني؟»

وقف وهو ينفض الغُبار عن رُكبتي بنطاله قائلًا: «أتيت منذ قليل، وجدت الباب مُغلَقًا، فاضطررت لفتحه عنوةً»

نطق بتلك الكلمات وهو يومئ برأسه نحو الباب الضخم المُغلَق، مُتابِعًا: «لكنّه أُغلِق بعد دخولي مُباشرةً، وكأنّ هناك قوةً خفيّةً تأبى تركه مفتوحًا، بحثت عنكِ في كُل مكان، لكنّني لم أجِد لكِ أثرًا، كدت أستسلِم وأرحَل، لولا أن سمعت صراخًا عاليًا اندلع من ذلك الركن، بحثت حتى سمعت صوتكِ تحاولين فتح الباب، فتحت الباب وشعرت بفزعكِ فجذبتكِ للخارِج»

ارتَفَع حاجباها في دهشةٍ وهي تسأله: «ألم تراهُنَّ؟»

انعقَد حاجباه وهو يسألها: «من هُنَّ؟»

بدأت تشرَح له ما حَدَث بالأسفل، تهدَّج صوتها وهي تقُص عليه بعض الأجزاء، دمعت عيناها في أجزاءٍ أخرى، فقدت قُدرتها على النُطق تارةً، وانتحبت تارةً أخرى، في نهاية الأمر.. كانت قد قصَّت الأمر كاملًا عليه، دون أن تنسى أدقَّ التفاصيل! فلو كان رجلًا من يقُصُّ عليه ما حَدَث بالأسفل لما استطاع الانتباه لكثيرٍ من التفاصيل التي دائمًا ما تراها أعيُن النساء بسهولةٍ.

أنصت إليها يوسف وملامحه تتبدَّل بين الكلمة والأخرى، تتأرجَح ملامحه بين الدهشة والغرق في التفكير، بعد أن أنهت حديثها تمامًا عضَّ شفته السُفلى طويلًا، حتى أدماها، غَرِق في التفكير فلم ينتبِه، شعرت أن صمته طال فسألته: «يوسِف.. إلى أين ذهبت؟»

انتبه.. فبادلها النظر في حرجٍ، سألته: «هل أنت مُتأكِّدٌ أنك لم تراهُنّ؟»

هزَّ رأسه في تردُّد، فضحته حركاته التي افتقرَت للانسيابية، فبدا أشبه بروبوت يُعاني من شدٍّ عضليٍّ، قرَّرت مواجهته فسألته: «يوسف.. ما الأمر؟»

هزَّ رأسه وهو يقول: «لا شيء.. لا شيء»

اقتربت منه خطوةً ونظرت في عينيه وهي تسأله: «ماذا تُخفي عني؟»

أغلَق عينيه وهو ينظُر للأرض مُردِّدًا: «لا شيء.. لا شيء»

تقدَّمت خطوةً، فتراجَع خطوة، شعرت بأنّه يهرب من شيءٍ ما، صمَّمت على تقدّمها، فتمسَّك بتراجعه، إلى أن اصطدَم ظهره بحائِطٍ باردٍ منع استمراره في التقهقُر، توقَّف مُرغمًا، لم يعُد يستطِع الهروب منها، سألته بجدٍّ لا مزاح فيه: «ماذا تُخفي يا يوسف؟»

نكَّس رأسه، نظر أرضًا لبضع ثوانٍ، قبل أن يرفع رأسه قائلًا: «حسنًا، سأخبركِ بكُلِّ شيءٍ.. بدأ الأمر منذ أمدٍ بعيدٍ، لم يكُن الأمر أكثر من مُجرَّد أسطورةٍ يتناقلها الجُهلاء فيما بينهم، تهوِّل الألسنُ من وقعها، ويُزيد الخيال من تفاصيلها»

سألته في اهتمامٍ شابَه الفضول: «لكن كيف بدأت هذه الأسطورة؟»

قال وهو يدور حول باب البدروم، قبل أن ينحني نحوه ثانيةً باهتمامٍ بالغٍ: «لا يعرِف أهالي المدينة كيف بدأت الأسطورة تتناقَل فيما بينهم، لكنَّ الشائِعة لم تترُك بيتًا إلا ودخلته، ولم تترُك أذنًا إلا ودلفتها، يتحدَّثون عن أمِّ قويق»

بدا الاسم مألوفًا لها، حتى ولو لم تكُن من سُكَّان المدينة، نظرت إليه وهو يُمسِك بمقبض الباب ويجذبه بقوةٍ محاولًا فتحه، أبى الباب أن يستجِيب، فتابَع قائلًا وهو يعتدِل في يأسٍ: «أم قويق المجنونة التي تعمَل في السحر والأعمال، يعاوِنها زوجها الملعون مشوَّه الوجه، لا يُعرَف له أصلٌ ولا فصل، قال عنه عمرو ابن زيد أنّه ابن نفرٍ من الجنّ»

شعرت بالفزع يغزو قلبها، فبسملت في همسٍ مسموعٍ، وهي تُغلِق قبضتي يديها في إشارةٍ واضحةٍ لتوتُّرها، كرَّرت جُملته بصوتٍ مُرتعِدٍ: «من الجن؟»

هزَّ رأسه إيجابًا وهو يعود لمحاولة فتح الباب، الذي رفض الاستجابة له مرةً أخرى وهو يقول: « هكذا قال عمرو، كما قال أنه مُتأكِّد ممّا يقول، وأنّ لديه دليلًا سيُريه لأهل المدينة بعد صلاة المغرب، لكن هل تعلمين ما الذي حَدَث؟»

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تسترجِع ما رأته في البدروم منذ قليل، قبل أن تهزّ رأسها يمنةً ويسارًا في دلالة لعدم

معرفتها لما حَدَث، استقبل إشارتها وفهمها، فطفق مُستكمِلًا: «احترَق منزله بعد العصر مُباشرةً، يقول من شَهِد الحادِث أن الحريق كان عالٍ، نيرانه خضراء مَهيبة، كُلما سُقيَت ماءً.. ازداد طولها وارتفاعها حتى كادت تُناطِح السماء، لم يستطِع الناس معها حولًا ولا قوة، أكلت النار المنزل برمّته، لم تُبقِ فيه ولا حتى حجرٍ واحد، حوّلت كُلَّ ما طالته إلى رماد»

أشار لها برأسه كي تأتي لمُساعدته، أسرعَت الخُطى وأمسكت بالمقبض معه، جذباه سويًا بكُل ما أوتيا من قوةٍ، لكنّ الباب لم يُفتَح، سألته وهي تستسلِم وتترُك المقبض: «وأين كان أهل المدينة حينئذٍ؟»

حاول مرّةً أو اثنتين لكنّ الباب رفض أن يستجيب، أجاب سؤالها قائلًا: «وقف الناس حول كومة الرماد التي كانت يومًا منزلًا يحوي بين جدرانه حياةً، منزلٌ عاشت به أسرةٌ كامِلة، تحوَّل المنزل بقاطنيه بكُلِّ ما فيه إلى تلك الكومة من الرماد، وقفوا يبسملون ويحوقلون، يضربون كفًّا بكفٍّ، يتبادلون الأنظار، تطير الهمهمات من فيه ذاك إلى أذن هذا، يتحدَّثون جميعًا عن شيءٍ واحِدٍ، أو لنكون أكثر دقة.. يتحدثون جميعًا عن شخص واحِد، عن درويش الجن!»

سألته في فضولٍ: «هكذا سمُّوه؟»

دار دورةً أخرى حول الباب وهو يتفحَّصُ مفصلاته الصدئة،

قبل أن يحاول تحريكها من مكانها، عسى أن تنفصِل أو تنكسِر فتُساعده فيما يرغَب، أجابها: «هكذا أطلقوا عليه، لكنّ ما حَدَث بعد ذلك كان صادمًا!»

سألته وهي تتلهّف للمعرفة: «ماذا حَدَث بعد ذلك؟»

كان قد يئس من المفصلات، فوقف وبدأ يتحرَّك في المكان بحثًا عن أيِّ شيءٍ يُساعده في مُهمّته، بدأ يتحدَّث وهو يدور في بهو القصر: «فجأةً.. انشقّ الجمع، سار الدرويش بينهم في ثقةٍ، كان - كعادته - مُلثَّم الوجه، يقول أنه يلفُّ وجهه بقماشٍ كثيفٍ ليُداري به تشوُّه وجهه، ويقولون أنّه يفعلها ليُخفي ملامِحه الشيطانية عنهم، سار بين الجمع بثقةٍ وهدوءٍ، ينشقون من حوله مثلما انشق البحر أمام النبي موسى، ومن خلفه تبعته أم قويق، مُتأخِّرةً عنه بخطوةٍ واحدةٍ، برأسٍ مُنكَّسٍ سارت خانِعةً، ومن حول رقبتها التفَّ حبلٌ أمسكه الدرويش بيده، ساقها كالبهائِم حتى وصلا إلى كومة الرماد، مُتجاهلين شهقات الخوف والهلع المُندلِعة من بين شفاه الجَمع، وقف بجوار الكومة ونظر لأقرب مجموعةٍ منه، تراجَعوا في سُرعةٍ، نظر إلى أم قويق والتي فَهِمت ما يرنو له، جلست على ركبتيها وبدأت تلتهِم الرماد، تملأ راحتي يدها وتبلع قبضةً تلو الأخرى، دون تقزُّز أو تردُّد، لم يجرؤ أحدٌ على مُقاطعتها حتى انتهت، تلوّث وجهها بالسُخام الأسود، وامتلأ أسفل أظافرها برمادٍ تجمَّع ليسكُنها، حين انتهت وقفت مُنكَّسة الرأس، فكَّ الحبل عن

رقبتها، وأومأ لها برأسه، فهزَّت رأسها في استجابةٍ وسارت دون تردُّد، نظر للموجودين حوله في هدوء وهو يقول: هلا ذهبنا لصلاة المغرِب جماعة؟»

انتبهَت بغتةً فسألته: «صلاة المغرب؟ إذًا لم يكُن جنًّا كما يدَّعون»

نظر لها للحظةٍ دون أن يُعلِّق، قبل أن يقول: «هكذا ظنّوا، خصوصًا حين سار دون أن ينتظِر ردًا من أحد، ساروا خلفه بهدوء، حتى ذاب وسط الجمع الغفير، لكنّهم حين وصلوا إلى باب المسجِد، لم يلحَظ أحدٌ اختفاءه!»

صمت قليلًا وهو يتحرَّك نحو باب القصر الضخم، أمسك بمقبضه وهو يومئ لها برأسه أن تحذو حذوه، فَهِمت ما يُريد، قالت له في ملل: «قُلت أنّك حاولت من قبل لكنّك..»

قال بلهجةٍ آمرةٍ مليئةٍ بالصرامة: «تعالي!»

لم تُجادِله، تحرَّكَت من فورها، أمسك بمقبض درفة بابٍ، في حين أمسكت هي بالأخرى، بدءا في محاولةٍ فاشلةٍ لفتح الباب، الذي تمسَّك برأيه، شعر بالغضب فركل الباب في قوةٍ، وهو يعود للحركة نحو باب القبو قائِلًا: «لكنَّ الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد!»

تبعته وهي تشعُر بفضولها يقودها، كانت تتحرَّق شوقًا لمعرفة بقية القصّة، أو الأسطورة، دلف إلى واحدةٍ من

الغُرف الموجودة في الدور الأرضيِّ، تبعته فرأته يقف في مُنتصف الغُرفة يبحث بناظره عن شيءٍ لم تدرِ كُنهه، لكنّه سُرعان ما وجد ضالّته، تحرَّك نحو مقعدٍ خشبيٍّ قديمٍ مُتهالِكٍ، كان يقف مُستنِدًا إلى الحائِط في تكاسُلٍ، أمسكه وطفق يهزُّ أحد أقدامه بقوةٍ حتى انفصل عن قاعدة المقعد مُستجيبًا له، أمسك بالقدم المخلوعةِ وتفحّصها وعيناه تلتمعان بشدّةٍ، سألته: «ماذا حَدَث بعد ذلك؟»

قال وهو يمرُّ بجوارها دون أن ينظُر إليها، لكنّه بمُجرَّد أن عبرها، بدأ يستكمِل سرد ما حَدَث: «عَرِف أحد رجالِ الشُرطة بما حَدَث، لم يهدأ له بالٌ، على الرغم من تحذيرات كُلِّ من حوله، نصحوه أن يكُفَّ عن التحقيق في الأمر، خصوصًا وأنَّ أحدًا لم يُبلِّغ الشُرطة أو حتى يطلُب منهم القيام بأيِّ شيءٍ من الأساس، لكنّ غرابة الأمر دفعته للبحث خلفه، وبطبيعة الحال.. بدأ يبحث خلف الدرويش، وعَلِم أهلُ المدينة كُلُّهم بما يحدُث، لكنَّ أحدًا لم يتوقَّع ردّةَ فعل الدرويش على ذلك»

سألته وهي تراه يفحص باب القبو، قبل أن يضع القدم المخلوعة تحت المقبض، ويُمسِك بها من طرفيها ويجذبها بعُنفٍ، لكنَّ الباب لم يتحرَّك من مكانه قيدَ أنملةٍ حتى، يئس فألقى بالقدم الخشبيّةِ في الهواء بقوّةٍ، واستكمَل حديثه: «اعترَض الدرويش طريق الضابِط، طلب منه بجلافةٍ أن يتركه وشأنه، وألّا يبحث فيما لا يعنيه، وإلّا حَدَث ما

لا تُحمَد عقباه، لم يحتمِل الضابِط ما حَدَث، رأى أنَّ هذا تعدٍ عليه وعلى مجريات التحقيق، فأمسك به وزجَّ به في الزنزانة الصغيرة المُظلِمة المُلحَقة بالقسم آنذاك، وعاد إلى منزله ليقضي القليل من الوقت مع زوجته وأبنائه، حيث أنّه كان قد انتهى من عمله في ذاك اليوم، وآن أوان الحصول على قسطٍ من الراحة»

قالت ريم وهي تسير نحو المكان الذي سقطت به القدم الخشبيّة، انحنت والتقطتها من على الأرض، وهي تقول: «وبالطبع حَدَث ما لا تُحمَد عُقباه»

وضعت القدم الخشبيَّة تحت المقبض بطريقةٍ مُختلِفةٍ، حيث دقَّت طرفًا في الأرض، وأمسكت بها من الطرف الآخر، وبدأت في جذبها بقوةٍ، مُعتمِدةً على قوتها في محاولةٍ أخيرةٍ لفتح الباب، فَهِم يوسف الفكرة فتحرَّك ليحلَّ محلَّها، تركت له القدم الخشبية، بدأ يستكمِل وهو يجذِبها بكُل ما أوتي من قوةٍ: «احترَقت داره بنفس الطريقة تمامًا، النيران الخضراء التي ارتفعت عاليًا في تحدٍ سافرٍ، لم يستطِع أحدهم درء شرِّها، حوَّلت الدار بكُلِّ ما احتوَته، ومن احتوَته، إلى كومةٍ من الرماد، تجمهر الناس حولها وهم يمصمصون شفاههم ويتحدَّثون عن مدى طيبة الضابِط وأسرته، فجأة.. ظهر هو!»

شهقت في خوفٍ وهي تستعيد مشهد الدرويش الذي رأته في البدروم، وهي تقول: «الدرويش؟»

جذب القدم الخشبية بقوةٍ، ظهرت عروق رقبته، وتجمَّعت قطرات العرق على جبهته وهو يقول بزئيرٍ قويٍ: «الدرويش»

وضعت يدها على فمها، انكسرت القدم الخشبيّة، لم تتحمَّل كُلَّ هذا الجذب والشدِّ، فقرَّرت أن تضع حدًّا للأمر وتهشَّمت، سقط يوسف على الأرض بعُنفٍ كردِ فعلٍ طبيعيٍّ للقوّةِ التي كان يجذب بها القدم، ألقى بالجُزء الذي أمسكه في يده أرضًا وهو يصرُخ: «اللّعنة!»

قبل أن يتنفَّس بعُمقٍ في محاولةٍ ليُهدئ من روعه، قبل أن يقول: «تمامًا مثل المرّةِ السابِقة، ظهر من العدم، لم يفهَم أحدٌ كيف خرج من الزنزانة! أو كيف ظهر وسطهم تمامًا بهذه الطريقة، لكنّه كان يسير مرفوع الرأس، يلتمِع الفخر في عينيه وكأنّه يُعلِن مسؤوليته عمّا حدث بطريقةٍ غير مُباشرةٍ، كان يُمسِك حبلًا بيده، يلتف حول رقبة أم قويق التي سارَت مُنكَّسة الرأس في خزيٍ من خلفه، ساقها وصولًا لكومة الرماد، جلست القُرفصاء وهي تُمسِك بالرماد وتأكله في نهمٍ بالغٍ، وقف الجميع في صمتٍ مصبوغٍ بالخوف، لم يجرؤ أحدهم على النطق بكلمةٍ، انتهت أم قويق من أكل الرماد كُلِّه، فساقها الدرويش من رقبتها وغادَر الجمع في صمتٍ، لكنّ رسالته كانت قد وصلت.. دون أن يحتاج للنطق ولو حتى بكلمةٍ واحدةٍ»

عاد للجلوس بجوار الباب في يأسٍ وهو يقول: «ومنذ

ذلك الحين وهو يُمارِس عمله بصُحبة أم قويق في السحر والأعمال دون أيِّ مُضايقات، تعلَّم الجميع غضّ البصرِ عنه وعن أفعاله خشيةً على حيواتهم وحيوات أحبائهم، تخصَّص الدرويش وأم قويق بعد ذلك في إقامة زارٍ شيطانيٍّ لكُل من تُعاني من مشاكِل في الحمل والولادة، ردَّد الجميع الحديث عن كراماته ومُعجِزاته، تحدَّثت السيدات عن زاره الذي له مفعول السحر، قالوا أنّه ما إن يُقيم لكِ الدرويش وأم قويق زارًا، حتى تحملين من فوركِ ولو أكَّد لكِ أطباء العالم كُلّه استحالة حدوث أيِّ حملٍ، كما تناقَلت الألسن بهمسٍ شائعةً مفادها أنّهم يستخدمون قرابين بشرية للتقرُّب من شيطانٍ مُعيَّن، قيل أنّه من نفس قبيلة الدرويش، هذه القرابين لم تكُن سوى..»

صمت وهو ينظُر لها نظرةً ذات مغزى، فَهِمَت مقصده فأكمَلَت جُملته قائلةً: «أطفالٍ رضَّع!»

قال بصوتٍ يحمل ألمًا واضِحًا لم يحاول إخفائه: «إزهاق حياة مُقابِل الحصول على حياةٍ أخرى! هل تتخيَّلين مدى وضاعة الأمر!»

قالت له في دهشةٍ: «إذًا ما شاهدته بالأسفل لم يكُن سوى زارًا شيطانيًا خاصًا بالدرويش؟ لكن.. كيف؟ حسب كلامك فهذا الأمر كان منذ العديد من السنوات!»

أجابها قائلًا: «العديد والعديد من السنوات، أكثرَ مما

تستطيعين أن تعدّين!»

قالَت: «لكن كيف رأيته بعيني؟ ولماذا في هذا المكان تحديدًا؟»

تنهَّد وهو يقول: «بخصوص سؤالكِ الثاني، فلديّ إجابةٌ عليه، لأنّ هذه الأرض كانت هي المكان الذي بنت فيه أمّ قويق منزلها هي والدرويش، قبل زمنٍ طويل، أمّا سؤالكِ الأول.. فإجابته بالأسفل، أنا شبه مُتأكّدٍ أنّه لا يوجد أيّ شيءٍ بالأسفل، وأن ما رأيتِيه لم يكُن سوى محض خيالٍ لا أكثر، لهذا كُنت أحاوِل فَتح الباب لأثبِت لكِ هذا.. علّنا نستريح!»

اقتربت من الباب وهي تسأله: «هل لي أن أحاوِل؟»

أشار لها على الباب وهو يقف ليبتعِد، مُفسِحًا لها المجال، أمسكت بالمقبض، وجذبته بعُنفٍ فانفتح بمُنتهى السهولة، كادت تفقِد اتزانها لأنّها كانت مُهيَّئة لجذبه دون طائِلٍ، وهو ما لم يحدُث، نظرت له بدهشةٍ، فوجدته يُبادلها الدهشة بأخرى أكبر منها، سألته: «ماذا حَدَث؟»

رفع كتفيه في تعجُّبٍ، وهو يقول: «لا أعرِف، لكن طالما فُتِح الباب.. هيا بنا»

لكنّه لم يتحرَّك نحو الباب المفتوح، بل عاد للغُرفة الجانبية واختفى داخلها لثوانٍ معدودةٍ، قبل أن يعود وهو يحمل في يديه قدمين خشبيتين خلعهما عن المقعد، ناولها

واحدةً وهو يقول: «تحسبًا لأيِّ شيءٍ سيحدُث بالأسفل!»

هبطا السلّم الدائري تباعًا، سبقها هو وهو يحمل العصا الخشبية أمامه في تحفُّزٍ واستعدادٍ، كان الظلام كثيفًا، هذه المرّة لم ترَ ضوء نيران المشاعِل، أخرَج يوسف هاتفه من جيب بنطاله، فتح كشّافه ومشي مُتحفِّزًا بخطواتٍ بطيئةٍ، تبعته ريم وقلبها يدقُّ بعُنفٍ حتى ليكاد يخترِق صدرها، وصلا إلى نهاية البدروم، واستعدا للانعطاف إلى الممرِّ الموجود يمينًا، التصقا بالحائِط، أشار لها أن تستعِد، وبحركةٍ سريعةٍ كان قد عدَّل من وضع جسده ووقف مواجِهًا للممر مُشهرًا سلاحه الخشبي، مواجهًا الظلام والفراغ فحسب، كان الممرُّ فارغًا! غارقًا في الظلام!

شعرت ريم بالحيرة تغزو قلبها وهي تقول: «أين ذهبن؟»

نظر لها يوسف بشكٍ وهو يقول: «هل أنتِ مُتأكِّدةٌ ممّا رأيتِ؟»

قالت ريم في غضبٍ: «أنا لست مجنونة، كُنَّ يقفن حوله هنا، تأخُذ المرأة الضخمة القرابين من هناك، ويذبحهم هو بيده هنا قبل أن تسقي بها الرمز الشيطاني..»

صمتت وهي تُكرِّر: «الرمز الشيطاني!»

خطفت الهاتِف من يده بسُرعةٍ وهي توجِّه كشّافه للأسفل، نحو الأرضيّة الصلبة الموجودة تحت أقدامهم، وأمام عينيها كان الرمز في انتظارها، حرَّكت الكشّاف يمنةً ويسارًا على

طول الرمز، فكشفت ستر الظلام عنه.

نظرت خلفه في فزعٍ، التفت ليرى ما تنظُر له، لكنّه لم يجد شيئًا، ورغم أنّ التفاتته تلك لم تدُم سوى ثوانٍ قليلةٍ، إلّا أنّها كانت كافيةً لتلتقط ريم شيئًا ما من وسط الظلام، وتُخفيه سريعًا في ملابسها، حين عاد لينظُر إليها وجد عينيها مُتسعتين في هلعٍ، ارتعد جسدها وهي تقول ليوسف بخوفٍ: «أنا أعرِف هذا الرمز! أعرفه جيدًا»

***

(٧)

كانت تشعُر بالخوف، تتقدَّم للأمام ببطءٍ، شعر والدها بتردّدها فأمسك بيدها ليطمئنها قليلًا، دمعت عيناها لكن ربّت على رأسها وهو يبتسِم، كانت ريم طفلةً لم تتعدَ الخامسة عشر من عُمرها آنذاك، وقفا أمام مكتَب الطبيب، طرقا الباب فسمعا صوته يأمرهما بالدخول، ابتسم حين رآهما، دعاهما للجلوس أمامه قبل أن يسألهما: «كيف حالكما اليوم؟ هل أنتما بخير؟»

ابتسم الرجل وهو يطمئنه أنّه على خير ما يُرام، بينما هزَّت ريم رأسها في خوفٍ وتوتُّر، ابتسم الطبيب وهو يقول: «لا تخافي يا صغيرتي، الأمر هيِّنٌ للغاية»

قبل أن يُحرِّك عينيه نحو الأب وهو يقول: «هل من المُمكِن أن تنتظِرنا ريم بالخارِج؟ أحتاج للتحدُّث معكَ قليلًا»

نظر الأب نحوها في حنانٍ، قبل أن يقول: «أعتقِد أنّه لا ضير من وجودها يا دكتور، ما الأمر؟»

نظر الطبيب لريم قليلًا قبل أن يقول: «وصلتني التحاليل الطبيّة والنفسيّة التي طلبتهما منكما صباح اليوم، كُلُّ شيءٍ على ما يُرام، لكن يجب أن تعرف بعض الأمور قبل أن نبدأ بالعملية، ولنبدأ من البداية»

هزَّ الرجل رأسه، تنفَّس الطبيب نفسًا عميقًا قبل أن يقول: «حالةُ ريم حالةٌ نادِرةٌ للغاية، وستكون واحدةً من أصغر مُتلقِّي التبرُّع بالكبِد في التاريخ»

ابتسم والد ريم وهو يقول: «ريم بطلةٌ، وقادِرةٌ على فعل ذلك»

ابتسمت ريم لثقة والدها بها رغم قلقها العارِم، استكمَل الطبيب حديثه وهو يقول: «أنتَ بالتأكيد تعلَم حالتها الصحيَّة، تُعاني ريم من رتقٍ في القناة الصفراوية منذ طفولتها، وهذه حالة لم تتمكَّن فيها القنوات الصفرواية من التكوُّن خارِج الكبد أثناء نموها كجنين، وبالتالي حال ذلك بين وصول الصفراء إلى الأمعاء الدقيقة، التي تحتاجها لتتمكَّن من هضم الدهون»

قلَّب في الأوراق الموضوع أمامه قبل أن ينتقي من بينها تقرير عمليةٍ قديمةٍ وهو يقول: «أرى في هذا التقرير أنها قامَت بإجراء عملية (كاساي) عندما بلغت من العُمر عشرة شهور، وهي عمليةٌ تُجرى لربط الأمعاء الدقيقة بالكبد مُباشرةً، لتجد العصارة الصفراوية مجرى تنصرف فيه، لكنّك بالتأكيد كُنت على درايةٍ أنّها بحاجةٍ لإجراء عمليةٍ جراحيةٍ لزراعة كبدٍ جديد، وهو أمرٌ حتميٌّ لابُدَّ منه»

هزَّ الأب رأسه وهو يقول: «أعرِف هذا»

نظر الطبيب لريم مرّةً أخرى وهو يقول: «هل أنت مُتأكِّدٌ من

أنّك لا تُريد أن تنتظرنا ريم بالخارِجِ قليلًا ؟»

ابتسم الرجل وهو يقول: «ريم لا تملك من الدنيا سواي، أريدها أن تكون بجواري، وأن أكون بجوارها»

ظهر عدم الاقتناع على الطبيب وهو يقول: «كما تُريد»

فتح ملفًا ورقيًا كان أمامه على المكتَب، وأخرج بعض التقارير وهو يقول: «وكما أظهَرت التقارير، فريم بدأت تدخُل في مرحلة الإصابة بفشل الكبد، وأنّها كانت تُعاني من ارتفاع ضغطِ الدمِ في الوريدِ البابيِّ، وللأسف.. كان لابُدَّ من التدخُّل الجراحيِّ خوفًا من إصابتها بمُضاعفاتٍ شديدةٍ»

سألته ريم ببراءةٍ: «هل سأكون بخير؟»

نظر للأب في لومٍ وهو يقول: «ستكونِ على خير ما يُرام»

نظر الطبيب للأوراق مرةً أخرى وهو يقول: «مكتوبٌ أمامي أنّك المُتبرِّع، والحقيقة أنّك المُتبرِّع الأنسب والأكثرُ مُلاءمةً بالفعل، لكنَّ العملية ستكون صعبةً ومُعقَّدةً بسبب وجود عدّة فوارِقَ علينا أخذها في الاعتبار، أهمّها هو عُمر ريم الصغير نسبيًا، سَبَق وأن نجحت عدّةُ عملياتٍ من هذا النوع في مثل هذا النوع الصغير أبرزها عملية الطّفل السوداني مُنتصِر الفاتِح محي الدين، والتي أجراها في كليفلاند كلينيك أبو ظَبي»

أمسك بتقريرٍ من أمامه وقرأ فيه قليلًا، قبل أن يخلع نظارته ويضعها أمامه على المكتب وهو يقول: «ستتلقى ريم طُعْمًا من نسيج الفص الأيسر من كبد حضرتك، هذا سيكون أكثر أمانًا بالنسبة لك، وسيُساعدك على التعافي سريعًا»

قال الرجل سريعًا: «لا يهمّني أن تكون العملية أكثر أمانًا بالنسبة لي، ولا أن أتعافى سريعًا، يهمّني فقط أن تكون ريم بخير!»

ابتسم الطبيب قائلًا: «ستكون بخير»

قال الطبيب: «ستنمو الكبد الجديدة داخِل ريم خلال بضع أسابيعَ، وسينمو كبد سيادتك ليكتمِل خلال نفس المُدة تقريبًا، لكنْ ستظلُّ حضرتك تحت الرعاية الطبيّة قليلًا، خوفًا من حدوث أيٍّ مُضاعفات»

قال الرجل بيقينٍ تامٍ: «لا أهتَم سوى بريم»

تنهَّد الطبيب وهو يقول: «هنيئًا لكِ بوالدكِ يا ريم، هذا الرجل كنزٌ قلّما وُجِد مثله»

ابتسمت ريم رغم خوفها وهي تقول: «أعرف هذا»

بادلها والدها الابتسامة وهو يسأل الطبيب: «متى سنُجري العملية؟»

تفحَّص الطبيب عدَّةَ أوراقٍ قبل أن تتسِّع ابتسامته وهو

يقول: «يوم الأربعاء مُناسِب؟»

قال والدها: «على بركة الله»

***

اقترَب يوسف من الرمز المحفور أرضًا، تأمَّله بدوره، لكنّه لم يقرَع أيّ أجراسٍ داخِل ذاكرته، كان مُجرَّد رمزٍ شيطانيٍ شبيهٍ بتلك الرموز التي يراها دائمًا في أفلام الرعب، أو على أغلفة الروايات، لكنّه لم يشعُر أنّه قد رآه من قبل، ولم يشعُر كذلك بأنّه مُميَّزٌ أو مألوف، سألها: «من أين تعرفينه؟»

نظرت له وعيناها زائغتان: «لا أتذكَّر، مُتأكِّدة أنّني أعرفه فحسب، أنا مُتأكِّدة»

زاغَت عيناها بشدّةٍ وهي تبحث في أركان ذاكرتها عن أيِّ دليلٍ، لكنّها لم تجد شيئًا، هو مُجرَّد شعورٍ عامٍ بأنّها تعرف هذا الرمز يقينًا فحسب، لا شيء آخر!

شعر يوسف بالإحباط، أعطتها إجابته القليل من الأمل، قبل أن تأخذه منه دون هوادةٍ أو رحمة، نظر حوله قبل أن يتحرَّك في أرجاء البدروم، كان الغُبار يغطي الأرض كُلّها إلّا من آثار أقدامهما، وهو الأمر الذي جعله ينبته لشيءٍ ما، سألها: «هل أنتِ مُتأكِّدةٌ أنكِ رأيتيهُنّ هنا؟»

عادَت من دوامة التفكير التي كانت قد غرِقَت فيها وهي

تقول بغضبٍ: «أنا لست مجنونةً يا يوسف»

شعر بالإحراج لكونها فَهِمَت حديثه على غير مقصده، قال مُبرِّرًا ما قال: «حاشا لله، لا أقصِد ذلك بالطبع يا ريم، لكن.. لا توجد أيُّ آثارِ أقدامٍ سوى آثارنا»

نظرت أرضًا وهي تُقرِّب كشّاف الهاتف من الأرض، لكنّها لم ترَ شيئًا، كان يوسف مُحقًا، انتبهَت بدورها للظلام الدامِس الذي يُحيط بهما، قالت في فزعٍ: «المشاعِل! كانت هناك مشاعِلُ ناريّةٌ مُعلَّقةٌ على الحائِط، لكنّها الآن اختفت هي الأخرى!»

قال: «يبدو أنكِ تخيَّلتِ الأمر فحسب»

نظرت له في غضبٍ فقال: «أو أنّه حقيقيٌ تمامًا، حقيقيٌ مائة في المائة»

تأمّلت المكان من حولها وهي تقول: «لم أتخيَّل الأمر يا يوسف، كيف سأتخيَّل أمرًا كان حقيقيًا منذ سنواتٍ طويلة، وأنا في الأساس لم أكُن أعرِف شيئًا عنه، فسِّر لي يا يوسف.. كيف يُمكِن أن يتخيَّل المرء شيئًا لم يكُن يعرف بوجوده من الأساس؟»

فكَّر قليلًا قبل أن يقول: « من المُمكِن أن تكوني قد سمعتي عن الأمر من شخصٍ ما، وترسَّخ الأمر في عقلكِ، قبل أن يستغِل عقلكِ الباطِن خوفكِ ليُهيئ لكِ ما رأيتِ، أو..»

رأي نظرتها المليئة بالغضب، فقال: «لقد قُلت من المُمكِن!»

قالت والقلق يتسلَّل إلى صوتها: «أنا لم أسمَع عن الأمر سوى منك يا يوسف، لذا من المُستحيل تمامًا أن أكون قد تخيَّلته، ما رأيته كان حقيقيًا تمامًا!»

قال وهو يهز كتفيه: «بالنسبة لكِ..»

قبل أن تُجيبه، سمعا صوت ضحكةٍ صغيرةٍ قادِمةٍ من الأعلى، من فوق باب البدروم تمامًا، كانت ضحكةَ طفلٍ صغيرٍ، قبل أن يسمعا صوت خطواتٍ صغيرةٍ تعدو في مرحٍ مُبتعدةً عن الباب، تبادلا النظر سويًا للحظةٍ.. قبل أن يركضا سويًا دون اتفاقٍ نحو السلّم الدائري الصاعِد إلى أعلى، وقلوبهما تدقُّ بشدةٍ في مواجهة فزعٍ لا يعرفان كيف يواجِهانه!

***

لكنّ بهو القصر كان فارغًا، على عكس قلوبهما التي امتلأت بالرُعب والذُعر، نظرا إلى بعضهما البعض، وكأنّ كلًّا منهما يبحث عن أمانٍ يستمِدّه من الآخر، لكن من قال أنَّ ناقِص الشيء يُعطيه، فها هما.. كلاهما ناقِصٌ للأمان، لكنّه غير قادِرٍ على إعطائه للآخر.

تلفتا من حولهما، لكنَّ القصر بدا فارغًا للغاية، وفجأةً..

شعرا بأنّه أوسَع من قبل، كاد وسعه يبتلعهما فيتيها في جنباته، نظرت له بيأسٍ، تلفَّت حوله بحيرةٍ، سمعا صوت ضحكةٍ قادِمةٍ من الدور العلويِّ، نظرا لبعضهما البعض قبل أن يركضا سويًا نحو السلّم المؤدي إليه، لكن قبل أن يصعدا أولى درجاته، سمعا صوت ضحكةٍ أخرى تأتيهما من خلفهما، من داخِل واحدةٍ من الغُرف المُظلِمة، وقفا في مكانيهما وتبادلا النظر ثانيةً، بدا أنّ هذا هو كُلُّ ما يفعلانه في الوقت الراهِن، سألته بصوتٍ مُرتجفٍ: «ماذا سنفعل؟»

نظر للأعلى في صمتٍ، قبل أن ينظُر للأسفل، حرَّك عنقه يمنةً ويسارًا، فتصاعَد صوت طقطقة خافِتة من عظام رقبته، قال لها بلهجةٍ آمرةٍ: «لنفترِق..»

نظرت للأعلى نحو الظلام الذي ابتلَع الدور العلوي وهي تبتلِع ريقها بصعوبةٍ، قبل أن تقول: «ولكن..»

قاطعها في عصبيةٍ وهو يسألها: «هل لديكِ حلٌ آخر؟»

صمتت، لم تُجِبه، ورغم ذلك.. كانت تلك إجابةً شافيةً على سؤاله، سألها: «الأعلى أم الأسفل؟»

سمعا صوت ضحكةٍ طفوليةٍ أخرى تتردَّد من الدور العلويِّ، كانت قريبةً من ضحكة عادِل، دقَّ الشوق قلبها فقالت: «الأعلى»

حرَّك رأسه ثانيةً، هذه المرة بعُنفٍ أكبر، فأتاه صوت الطقطقة عاليًا، همس لنفسه: «توكَّلنا على الله»

استدار وتحرَّك نحو الأبواب المُصطفَّة على الناحية الأخرى، أبواب الغُرف التي تسبَح في ظلامٍ دامسٍ، سمعا صوت ضحكةٍ طفوليّةٍ أخرى من الأعلى، أشار لها أن تصعد للأعلى وأن تذهَب لاكتشاف مصدر هذا الصوت.

هزَّت رأسها وتحرَّكَت للأعلى في تردُّدٍ، تسلَّقت درجات السلّم في بطءٍ، تقدِّم ساقًا.. وتؤخِّر الأخرى، لكنّها في النهاية.. وبعد عدّةِ دقائِقَ.. وجدت نفسها تقِف في أول الممرِّ المُظلِم، ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تتحرَّك نحو باب الغُرفة التي يأتيها منه صوت الضحكات!

***

(٨)

خطت أولى خطواتها داخِل الممرِّ، سيطر الظلام عليه تمامًا، ضيَّقت عينيها في محاولةٍ منها لسبر أغواره، مالت برأسها قليلًا ناحية اليسار كي تُنصِت السمع، لكنّها لم تسمَع سوى صوتَ أنفاسها ودقَّاتِ قلبها فحسب، وضعت يدها على قلبها وهي تحاوِل خَفض صوته قليلًا كيلا يفضح أمرها، ابتلعت ريقها بصعوبةٍ، سمعت صوت خطواتٍ تتحرَّك من خلفها، نظرت للخلف سريعًا.. لكنّها لم تجِد أيَّ شيءٍ، ظهر التوتُّر على وجهها، ارتجفت شفتها السُفلي في خوفٍ وصدرها يعلو ويهبط في سُرعةٍ.

سمعت الصوت من خلفها مرةً أخرى، انتفض جسدها وهي تنظُر للخلف، لكنّها - كالعادة - لم تجد شيئًا، سَمِعَت أحد الأبواب يُغلَق بقوةٍ من خلفها، انتفَض جسدها وهي تقفِز في مكانها، تلفَّتت من حولها في توتُّرٍ، ضمَّت يديها حول جسدها وكأنّها تحتضِن نفسها، مسحت الممرَّ بعينيها التي بدأت تتأقلَم مع الظلام قليلًا، لكنّها لم ترَ أيَّ شيءٍ، هل كانت تلك إشارة؟ هل فعل هذا لمنعها من الانسحاب؟

بدأت تتنفَّس بعُمقٍ في محاولةٍ للتسلُّح بالهدوء في مواجهة المجهول الذي ينتظِرها، ابتلعت ريقها مرّةً أخرى وبدأت تتحرَّك للأمام، دهست بعض الحصى فتفرّقت بصدىً عالٍ تحت قدمها، نظرت للأسفل وكأنّها تلومها على

فعلتها، مسحت الغُرف المفتوحة بعينيها وهي تتقدَّم للأمام في خوفٍ وتردُّدٍ.

لم تكُن تعرف حقيقة ما ينتظِرها داخِل تلك الغُرفة، لكنّها لا تملك حلًّا آخرًا سوى اكتشاف الحقيقة بنفسها.

شعرت بنسمةِ هواءٍ بارِدةٍ تأتيها من مكان لا تعرِفه، شعرت بقلبها يرتجِف بردًا داخِل صدرها، سمعت صوتَ همسٍ يأتيها من خلفها، تجمَّدت في مكانها، حاولت أن تُنصِت السمع، لكنّها لم تُميِّز أيَّ كلماتٍ مفهومةٍ، نظرت للخلف بحثًا عن مصدر صوتٍ، ظنًّا منها أنّ يوسف ربّما أنهى بحثه في الدور السُفليِّ وصَعَد لمُساعدتها، لكنّ الممرَّ من خلفها كان فارِغًا، سمعت صوت باب الغُرفة الخشبيِّ يأتيها بوضوحٍ، خصوصًا بعد أن أنَّت مفصّلاته المعدنية الصدِئة، لماذا لا يتحرَّك هذا اللعين أمام عينيها؟ لماذا ينتظِر دائِمًا حين تُشيح بنظرها كي يفعل هذا؟

عادت تتحرَّك للأمام، كانت تعرِف هدفها، لا يُمكِن أن يكون الأمر مُجرَّد صُدفةٍ، بالتأكيد فَتح الباب وغلقه إشارةٌ واضحةٌ، لكن إشارة لماذا بالضبط؟ وصلت للغُرفة، تنفَّست بعُمقٍ وهي تسمَع صوت دقّات قلبها عاليًا في أذنيها، ارتجفت بسبب تيار الهواء البارِد الذي هاجَم الممرَّ بأكمله، نظرت داخِل الغُرفة، كانت متوسطة الحجم، مُشقَّقة الحوائِط، أرضها مُغطّاةٌ بحصىً صغيرةٍ كسائِر غُرف وممرات هذا الدور، عن يسارها كانت هناك نافِذةٌ تتوسَّط

الحائِط، وعن يمينها احتلَّت سبّورةٌ ضخمةٌ نصف الحائِط، كوِّمَت بعض المقاعِد والمناضِد الخشبيّةِ في أحد الأركان، وقفت على الباب وهي تضيِّق عينيها قليلًا، لقد رأت هذه الغُرفة من قبل!

كانت تحفَظ تفاصيلها عن ظهر قلب، تعرِف مكان كُلِّ شيءٍ، لكن أين؟ أين رأتها؟

فجأة.. ضربتها صاعِقةُ الفهم، لتُنير جزءًا مُظلِمًا من ذاكرتها، الكابوس! الكابوس الذي استمرَّ بمُهاجمتها في الأيام القليلة التي سَبَقَت اختفاء عادِل!

هل لهذا الأمر علاقةٌ بعادِل؟

لكنّها تردَّدت قليلًا، هل فعلًا هي نفس الغُرفة؟ أم تُرى عقلها الباطِن يربط خيوطًا وهميّةً ببعضها البعض محاولًا الوصول لسيناريو منطقيّ!

قرَّرت أن تحسِم أمرها، تقدَّمت خطوةً نحو السبّورة، أملَت أن تجد عليها كتابةً من أي نوع، لكنّها كانت فارِغةً تمامًا، ما الذي يحدُث؟

هل يتحقَّق الكابوس؟

ماذا ستفعل الآن؟

فكَّرت قليلًا قبل أن تنظُر للنافِذة، ربما إن نظرت منها سترى شيئًا مُختلِفًا عن الكابوس، هذا هو كُلُّ ما تحتاجه،

أن يختلِف شيءٌ واحدٌ عن الكابوس، تحرَّكت نحو النافِذة، ومن خلفها.. انغَلَق باب الغُرفة بدويٍّ هائِلٍ، اتسعت عيناها فزعًا، تجمَّدت في مكانها وهي تبتلِع ريقها بصعوبةٍ، هذا بالظبط ما حَدَث في الكابوس اللّعين.

نظرت خلفها وهي تدعو الله أن تجد أيَّ شيءٍ، حتى لو كان شيطانًا، لكنّها لم تجد سوى الظلام، أغلَقت عينيها وحاولت أن تهدأ قليلًا كيلا يتوقَّف قلبها من الخوف، تذكَّرت ما حَدَث بعد ذلك في كابوسها، همست لنفسها: «الباب»

فَتَحَت عينيها وتحرَّكَت نحو الباب في خطواتٍ سريعةٍ دافعها الخوف، مدَّت يدها المُرتجِفة نحو مقبَض الباب، أمسكت به وفتحته سريعًا، وللمرة الأولى تحزَن أنّ الباب استجاب لها، تمنَّت لو أنّه أبى أن يُفتَح، لو أنّه رَفَض الانصياع لها، تركته مفتوحًا، كانت تُدرِك أنّها وضعت حجرًا في طريقه كيلا يُغلَق مرةً أخرى في كابوسها، لكنّها لم تفعل ذلك في الحقيقة.. أرادت أن يختلِف الأمر قليلًا، لربما تختلِف النتائِج إذا ما تغيَّرت المعطيات!

نظرت للسبورة مرةً أخرى وهي تهمس: «إياكِ»

تحرَّكت نحو النافِذة، لم يحدُث أيُّ شيءٍ، اقترَبَت منها ببطءٍ، كادَت تنظُر منها عندما سمعت الصوت الوحيد الذي تمنَّت لو أنّها لم تسمعه في هذه اللحظة تحديدًا، صوت

صرير الطبشور اللّعين على السبورة!

توقّفت في مكانها مثلما فعلت في الكابوس تمامًا، جمّد صوت الصرير الدم في عروقها، عَرِفَت ما يحدُث دون أن تنظُر، كانت تُدرِك جيدًا أن الطبشور الأبيض يتحرّك بمُفرده على السبورة، دون أن تُمسِكه أو تُحرّكه أيُّ قوّةٍ خارجيّةٍ، أغلقَت عينيها ووضعت يديها فوق أذنيها، تمنَّت لو أصيبت بالصمم في هذه اللحظة كيلا تسمَع هذا الصوت الذي يكاد يُصيبها بالجنون، أغلقت عينيها وبدأت تهزُّ رأسها في رفضٍ تامٍّ لكُلِّ ما يحدُث من حولها، فجأةً.. فتحت عينيها وشبح ابتسامةٍ متوتِّرةٍ يرتسِم فوق شفتيها وهي تهمس: «المطر!»

ركضت نحو النافِذة وهي تنظُر إلى السماء، لم تُمطِر، تحوَّلت ابتسامتها إلى ضحكةٍ عاليةٍ، قهقهت في عصبيةٍ وهي تقفز في مكانها، صفّقت بيديها جزلةً وهي تصرخ: «لم تُمطِر! هاهاهاها! لم تُمطِر! السماء لم تُمطِر! هاهاهاها!»

وقبل أن تنتهي من الفقرة المرِحة التي كانت تقوم بها، بدأ المطر!

تجمَّدت في مكانها، تبدّلت الفرحة التي سكنت ملامحها قبل قليلٍ إلى رعبٍ احتلَ كيانها بأكمله، لم تُمطِر السماء وحدها في تلك اللحظة، بل بكت عيناها معها، بكت اختلافًا تاقَت له ولم تنله، نظرت للنافِذة التي بدأت تتسخ بالوحل اللزِج الذي هبط من السماء، سمعت صوت الصرير

من خلفها، نظرت للخلف، كان الطبشور مُستمرًا في الكتابة من خلفها، بكت وهي تهمس بالكلمات قبل أن تُكتَب، وكأنها هي من تقوم بإملائِها على الطبشور ليكتبها!

همست:

(أنـــــــــــــــا الآتي من الجحيم لأحيل حياتكِ جحيمًا.

ها أنـــــــــــا ذا هنا.. فهل تجرؤين على الوقوف في طريقي.

ربما ظننتِ أنّكِ لي ندًّا، لكنكِ فـــــــــــــــانيةٌ ضعيفة.

باسم كُلِّ من خُلِق من نارٍ أقسم لكِ أن أحوِّل حياتكِ لكابوسٍ.

يا أيتها الفــــــــــــانية.. لتعيشي مصيرًا أقسى من الموت!)

لم يُخطئ الطبشور في كلمةٍ، لم يُبدِّل حرفًا مما جاء في كابوسها، مدَّت يدها فمسحت دموعها لتتضح رؤيتها قليلًا وهي تعود بعينيها نحو النافِذة، همست: «اهربي»

كُتِبَت الكلمة أمام عينيها وسط الوحل فوق زجاج النافِذة الخارجيِّ، كانت كمن تتنبأ بما يحدُث، لكنّها لم تكُن تفعل.. جُلَّ ما كانت تفعله هو تذكُّر تفاصيل كابوسها نظرت

للسبّورة التي بدأت الكتابة الموجودة فوقها تتغيَّر، تتبدَّل وتنكمِش.

من فقرةٍ إلى جُملة.. ومن جُملةٍ إلى كلمة!

همست وحروف الكلمة تتكوَّن على السبورة أمام عينيها:
«اهربي!»

ركضت نحو الباب، كانت تعرِف يقينًا أنها ستحاوِل فتح الباب لكنّه لن يستجيب لها، لكنّها لم تعرِف ماذا تفعل سوى هذا، لم تعرِف حلًا آخرًا، أصبحت رؤيتها ضبابيةً مرة أخرى بسبب الدموع، مسحتها عن عينيها سريعًا، مدَّت يدها وهي تنشج ببكاءٍ عالٍ، أدارت مقبض الباب في خوفٍ وتردُّدٍ..

فاستجاب لها وانفتح!

انعقَد حاجباها في غير فهمٍ، كان من المُفترض أن يكون مُغلقًا، وألا يستجيب لها أبدًا، لكن أيخشى السجين فَتح أبواب زنزانته!

كادت تفر من المكان راكضةً، لم تُصدِّق أنّها على وشك الهروب من هذا الجحيم، لكنّها توقَّفت فجأةً.. تذكَّرت شيئًا هامًا، تذكَّرت ما رأته من خلفها في الكابوس، ورغم أنّها كانت تعرِف يقينًا أن هذا كان أسوأ قراراتها في الكابوس.. وأنّه سيكون أسوأ قراراتها في الواقِع، إلّا أنّها لم تستطِع مقاومة فضولها!

ونظرت للخلف!

لكنّها لم تجد شيئًا، كانت الغُرفة فارغةً تمامًا تنهَّدت بارتياحٍ، استدارت لتخرُج من الغُرفة، لكنّه كان يقف بانتظارها أمامها!

طفلًا صغيرًا!

دون أي ملامح!

وكأنّ هناك طبقةً من الجلد شُدَّت على وجهه فوق جُمجمته دون أن تحتلها أيُّ ملامِحَ على الإطلاق، مجرَّد جلدٍ دون ملامح فقط!

وقبل أن تفعل أيَّ شيءٍ آخر.. قرَّرت أن تصرُخ واحدةً من أكثر صرخاتها فزعًا، لكنّها لم تستمِر طويلًا!

فسُرعان ما شعرت بالعالم يدور من حولها، وهي تفقد وعيها وتسقط على الأرض تحت قدمي الطفل، الذي نظر إليها قليلًا، كاد يجثم فوق جسدها قبل أن يُغيِّر رأيه ويتركها ويرحل..

نحو الدور السُفلي!

يجب أن ينتهي من أمرِ يوسف أولًا..

***

(٩)

تحرَّك يوسفُ بحذرٍ في الطابِق السُفليِّ، كان هناك ما يشغَل باله، تلك الضحكة التي سمعاها منذ قليل، كانت ضحكةً طفوليةً عاديةً، فعادةً ما تتشابَه ضحكات الأطفال وجزلهم، لكنّ شيئًا ما فيها حرَّك قلبه، جعله ينبض بطريقةٍ كان قد نسيها منذ أمدٍ بعيد، ذكَّرته بابنته الغائِبة، لم يكُن مُتأكِّدًا ممّا سَمِعه بالطبع، لكنّه أراد أن يثق بحدسه هذه المرة.

فحص غُرفتين مفتوحتي الأبواب بعينيه وهو يمرُّ بجوارهما، ورغم الظلام.. الذي بدأت عيناه تعتادانه شيئًا فشيئًا، إلّا أنّه استطاع أن يتأكّد من خلوهما من أيِّ شيءٍ، سوى بضع مقاعِدَ ومناضِدَ قديمة، هدَّها الزمن فلم تحتَجَّ، وانصاعَت له صاغِرةً، لكنّ الغُرفة الثالثة كان بابها مُغلَق، مدَّ يده وهو يتعمَّد عدم النظر إليها كيلا يرى الرعشة التي تسري بها، والتي كان يشعُر بها تجتاح جسده بأكمله، فتح الباب، كانت كسابقاتها، فارِغةً خاويةً، تحرَّك نحو الغُرفة الرابِعة، مدَّ يده نحو مقبضها، وقبل أن يمسَّه.. سمعها مرةً أخرى!

ضحكةٌ طفوليّةٌ مكتومةٌ تأتيه من خلف الباب المُغلَق، سَحَب يده سريعًا في تشنُّجٍ وكأنّ شيئًا ما مسّه، نظر للباب في توتُّرٍ، هناك في تلك الضحكة ما يُذكِّره بابنته التي

اختفت دون أن تترك أثرًا، لكن هناك شيءٌ ما فيها أيضًا كفيلٌ بتجميد الدم في العروق، اقترَب من الباب، مال برأسه نحوه، لصق أذنه بالباب الخشبيِّ، سمع صوت السوس وهو ينخُر قلبه، لكنّه سمع كذلك صوت الضحكات يتوقّف تمامًا، قبل أن يتبدّل بصوت همسٍ أجشّ صدئٍ يقول بلهجةٍ آمرةٍ: «تعال»

تراجَع خطوةً للخلف كالممسوس، هزَّ رأسه في رفضٍ، ولسان حاله يقول: لا.. لا لن آتي!

تضارَبت الأفكار في رأسه وهي تفر في جنونٍ، دُهِست الأفكار الجيّدة تحت الأقدام، وفرَّت الأفكار الرديئة بعيدًا، شعر وكأنّ عقله خاوٍ، لا أفكار فيه، وقف في مكانه لا يعرِف ماذا يفعل!

لم يحتج لأي أفكارٍ ليُدرِك أنّه لا يملك سوى خيارين لا ثالِث لهما:

إمّا أن يتشجَّع ويدخُل إلى تلك الغُرفة ليرى ما يحدُث بداخلها!

وإمّا أن يطيع خوفه ويتراجَع بعيدًا عنها مُحتفظًا بما تبقى من كرامته!

مال جسده للخيارِ الثاني، فتراجَع في بطءٍ دون أن يُدرِك حتى أنّه يفعل هذا، كان جسده يتحرَّك في آليةٍ تامةٍ، وكأنّه فقد قدرته على اتخاذ القرارات بإرادته الحُرَّة، تردَّد صوت

الهمس ثانيةً، هذه المرة كان مسموعًا، كما كان يتحلى بقوةٍ لم يستطِع يوسف مقاوَمتها، أمره الصوت الشيطاني قائِلًا: «تعالَ»

تحرَّك للأمام مرةً أخرى، وللمرة الثانية بدا فاقدًا لسيطرته على نفسه، توقَّف أمام باب الغُرفة غير مُتأكِّدٍ ممّا يجب عليه فعله، لكنّه سَمِع بغتةً نهنهات بكاءٍ خافِت تتسلَّل لتخترِق مسامِعه، ميَّزَ صوت البُكاء بسهولةٍ، دقَّ قلبه بقوةٍ، كان صوت بُكاء ابنته نورهان، اقترَب من الباب وهمس مُناديًا: «نورهان؟ نور؟»

سَمِع صوتها وهي تقول بلهفةٍ: «بابا؟»

ارتَعَد جسده بأكمله، مدَّ يده في سُرعة ليُمسِك مقبض الباب، أداره في تعجُّلٍ، فَتَح الغُرفة ودلفها قبل حتى أن يرى ما تحتويه، ورآها!

كانت تجلِسُ على مقعدٍ مُتهالِكٍ في رُكن الغُرفة البعيد، توليه ظهرها، ووجهها إلى الحائِط، لم يستطِع رؤية وجهها، لكنّه ميَّز جسدها، شعرها، وصوتها، كانت ابنته، اقترَب منها بخطواتٍ بطيئةٍ، وكأنّه لا يُصدِّق أنّه وجدها بعد كُل هذا الوقت، وقف خلفها تمامًا، مدَّ يده التي ترتعِد بشدّةٍ ووضعها على ظهرها، لمسها.. فارتجَف شوقًا وحنينًا، قال بصوتٍ مُتهدِّج: «أنا هنا يا صغيرتي.. بابا هنا»

ارتَفَع صوت بكائها وهي تقول: «أنا خائِفة يا بابا، ألست

خائِفًا؟»

قال محاولًا التهدئة من روعها: «لا يا صغيرتي، بابا لا يخاف أبدًا»

تحوَّل بكاؤها إلى ضحكٍ بغتةً، تبدَّل صوتها، أصبح خشنًا وكأنّه قادمٌ من الجحيم وهي تقول: «أحمق.. وَجَب عليك الخوف!»

استدارَت فرأى وجهها، لم تكُن صغيرته، كانت طفلًا مُرعِبًا بشعرٍ طويلٍ، طفلٌ وجهه مُصمتٌ دون ملامِح! جلد مشدود على جُمجمةٍ صغيرةٍ، دون أعيُن! أنف! أو حتى فم!

في هذه اللحظة أيقَن يوسف أن صاحِب الصوت كان مُحِقًا!

بالفعل وَجَب عليه الخوف!

وهو ما فعله دون أن يُبديَ أيَّ مقاومة!

هزَّ رأسه في عدم تصديق وهو يتراجَع للخلف، لم يُصدِّق ما يراه بأمِّ عينيه، همس لنفسه: «مُـ.. مُستحيل! هذا مُستحيل!»

سَمِع صوت ابنته تقول: «بابا! أين تذهَب؟ ألم تشتاق إليّ؟ ألا تُريد أن تحتضنني؟»

تبدَّلت ملامح الطفل، تحرَّك جلد وجهه المشدود وكأنّه يذوب، تحرَّك في عُنفٍ وهو يميل برأسه نحو اليسار، تهتزُّ

رأسه ويتشنَّج وجهه، وبالتدريج احتلَّت ملامحها الجلد المشدود، ليجد يوسف نفسه بغتةً يقف أمام ابنته وهي تفتح ذراعيها له في لهفةٍ ترجو حضنًا من أبٍ توحَّشته واشتاقَت إليه، سمع صوتها وهي تقول وكأنّها على وشك البُكاء: «إلى أين ستذهَب؟ هل ستتركني هنا بمُفردي؟»

وعلى الرغم من دقّات قلبه، إلاّ أن عقله أيقَن أنّه يُخدَع، استدار وبدأ يركض نحو باب الغُرفة محاولًا الهروب من هذا الفخ، لكنّه لم يرَ الطفل وهو يومئ برأسه يمينًا، ليتحرَّك باب الغُرفة ليُغلَق أمام يوسف بدويٍّ هائِلٍ، سَمِع صوت ابنته من خلفه وهي تقول: «دون أن تحتضنني؟»

تبدَّل صوتها ليتحوَّل لذلك الصوت الشيطانيِّ وهي تقول: «أغضبتني»

نظر يوسف خلفه في رعبٍ، كان قد نسي أنه يُمسِك بقضيب معدني في يده، لكنّه تذكَّره حين سقطَت فوق قدمه، آلمته فنظر إليها في لومٍ، رفع عينيه بعد لحظةٍ واحدةٍ فوجد الطفل يقف أمامه، مُحدِّقًا في عينيه بعيني ابنته، مُبتسمًا في سُخريةٍ بشفتي ابنته، تجمَّد للحظةٍ أمام عيني ابنته، أوحشته حقًّا، نسى لثوانٍ قليلةٍ أنّ ما ينظُر إليه ليس ابنته، لكنّه أيقن هذا حين طار جسده في الهواء ليقع فوق كومة من المقاعِد الخشبيّة القديمة التي تحطَّمت تحت ثِقَل جسده، تجاهَل ألمه واستند على ذراعيه وهو يقِف، تفادى مقعدًا أتاه طائرًا في سُرعةٍ، كاد يُصيب رأسه لولا

ابتعاد يوسف عن طريقه سريعًا، رأي مجموعةً من الأخشاب المُحطَّمة ترتفِع عاليًا في الهواء وكأنَّ يدًا خفيَّةً تُمسِك بها، توقَّفت في الهواء أمام وجهه، تأمَّلها في هلعٍ قبل أن ينحني سريعًا، دون أن يُدرِك أنّه سقط لتوّه في الفخِ كالغر الساذِج، كانت أسفل قدميه قطعةٌ خشبيّةٌ عريضةٌ في انتظاره، طارت بقوّةٍ لتصدمه في قدميه، تطوَّح جسده في الهواء ودار حول نفسه، سقط ليرتطِم بالأرض في قوّةٍ، أغلَق عينيه وهو يئنُّ بألمٍ، شعر به يقترِب منه، فَتَح عينيه بسُرعةٍ ورآه مُنحنيًا بالقُرب منه، وقد ألصَق وجهه بوجهه، حاول أن يدير وجهه بعيدًا، لكنّه لم يستطِع، وكأنّ هناك من يجذِب وجهه ليظل على حالته، اقترَب منه الطفل ذو الوجه الممسوح، ورغم كونه عديم الملامِح، إلّا أنّ يوسف شعر وكأنّه يبتسِم له ابتسامةً ساخرةً، سمع صوته الشيطانيُّ يقول: «وَجَب عليك أن تخاف»

اعتدَل الطفل ووقف مُنتصِبًا، أشار بيديه في اتجاهين مُتضادين، واحدة يمينًا.. والأخرى يسارًا، شعر يوسف بجسده يتمطَّط، وكأن أطرافًا خفيةً تجذبه، صَرَخ بألمٍ وهو يشعُر بمفاصِله تئنُّ وجعًا، آلمته كتفاه، وأوجعته مفاصل فخذيه، كادت عظامه تعلن عصيانها على جسده وتتهشَّم، حاول التحمُّل، لكنّ الأمرَ كان فوق طاقته، صَرَخ وهو يتألَّم، أغلَق عينيه وحاول أن يتماسَك، لكنَّ الأمر كان قد وصل لمرحلةٍ من الصعب تحمُّلها أو التعامُل معها.

استسلَم لكُلِّ شيءٍ، للألم.. للحُزن.. للوجع.. للفقد.. للجنون..

ورَحَّب بصغيرته.. التي سيراها بعد قليلٍ حينما ينضَمُّ للعالم الآخر.

اسودَّ العالَم أمام عينيه تدريجيًا، لم يعُد يشعُر بالألم، خدَّر عقله جسده كيلا تَذهِب شدّة الوجع بعقله، تنهَّد وعلامات التألُّم المحفورة على وجهه تختفي، ليحل محلها ابتسامةٌ حزينةٌ، كانت ابنته تسكُن خياله، ابتسم لرؤيتها ونسى كُلَّ شيءٍ.

استسلَم للظلام، للصمت، للمجهول..

استسلَم وقد عَرِف وفَهِم أنَّ الرحلة قد انتهَت!

شعر بقميصه يتمزَّق، وبخطٍ من نارٍ يحفُر شيئًا ما على صدره، لكنّه لم يهتَم، رغم الألم.. لم يهتَم، كانت عيناه مُعلَّقتان بصغيرته التي تتقافَز أمامه وفستانها الصغير يدور من حولها، تسلَّلت دمعةٌ من عينه، لم تكُن دمعة ألمٍ، كانت دمعة حنين، بكي أيامًا غابت عنه فلم يعِشها، أسابيعًا مرَّت كدهرٍ ثقيل وهو محروم من ابتسامتها، وشهورًا وشَمَت في روحه ألمًا لن ينسَاه أبدًا.

في اللحظة الأخيرة وقبل أن يُظلِم كُلُّ شيءٍ للأبد، سمع صرخةً وحشيّةً عاليةً، تبعها صوتُ تهشُّمِ شيءٍ.

فتح عينيه بصعوبةٍ، رأي من بين الضباب الكثيف الذي هاجَم وضوح رؤيته ريم، تقف خلف الطفل عديم الملامِح، تُمسِك بيدها طرف قضيبٍ معدنيٍّ مُهشَّمٍ، والطفل ينظُر لها، لم تستغرِق رؤيته للمشهَد سوى ثوانٍ معدودةٍ قبل أن يُغلِق عينيه، لكنّه أدرَك ثلاثة أشياء، أولًا: تسلَّلت ريم من خلف الطفل وهي تُمسِك بيدها القضيب المعدنيَّ، ضربته بها على رأسه فهشَّمته دون أن تُصيبه بأي ضررٍ يُذكَر.

ثانيًا: تشتَّت الطفل فتوقَّف العذاب مؤقتًا، ممّا منحه حرية الحركة مرّةً أخرى، رغم الألم الضاري الذي أصاب جسده بأكمله

ثالثًا: هذا أغبى ما فعلت ريم في حياتها، وسيدفع كلاهما ثمن هذه الحماقة غاليًا..

وهو ما حَدَث بالفعل!

التفت الطفل لها، وعلى الرغم من أن وجهه لا يحتوي على أيِّ ملامِح، إلّا أنّها شعرت بالغضب العارِم يحتَلُّ الغُرفة من حولها، لا تعرِف ما الذي أعطاها هذا الإحساس تحديدًا، هل هو الحصى التي بدأت تهتَز فوق الأرض وكأنَّ زلزالًا على وشك الحدوث؟ أم تُراه طلاء الحوائط الذي بدأ يتقشَّر وينهار مُتساقِطًا على الأرض؟ أم هي الشُعيرات القصيرة التي انتصَبت فوق مؤخرة عنقها؟

لم تعرِف يقينًا، لكنّها تأكَّدت أنّه غاضِبٌ بالطريقة

الصعبة، رفع يده عاليًا فشعرت بجسدها يطير في الهواء، وكأنّها دميةٌ صغيرةٌ في يد طفلٍ غاضِبٍ، ارتطَم جسدها بالسقف في عُنفٍ، شعرت بكُلِّ عظمةٍ في جسدها تئنُّ في ألمٍ لا يُطاق، استعدَّت للارتطام بالأرض، لكنّها وبشكلٍ ما ظلَّت مُعلَّقة في سقف الغُرفة، نظرت للأرض وعلامات الخوف تظهر جليّةً على وجهها، كان الطفل ينظُر للأعلى مرفوع اليد، لم يرَ يوسِف الذي تحامَل على نفسه ووقف مُترنحًا، كاد الألم يُثمِله، صرخ يوسف وهو يركض نحو الطفل الذي انتبه له متأخِّرًا، انحنى يوسِف وأمسك بالطفل أثناءِ اندفاعه، سقطا سويًا على الأرض وكلٌّ منهما يُمسِك بتلابيب الآخر، تدحرجا فوق الأرض لثوانٍ، راقبت ريم صراعهما وهي تهوي من علٍ نحو الأرض، اصطدمت بالأرض فأنَّ جسدها، صرخَت في ألمٍ عندما شعرت بيدها وهي تتهشَّم تحت ثِقَل جسدها، سمعت صوت قرقعة العظام وهي تنكسِر إلى نصفين أو أكثر، انقلبَت على ظهرها وأمسكت بيدها فوق صدرها وهي تصرُخ.

انتهى يوسِف والطفل من الدحرجة عندما اصطدما بالحائِط، كانت ليوسِف اليد العُليا رغم ارهاقه وألمه، انقلب على ظهره قبل أن يعتدِل مُستنِدًا إلى ركبتيه وهو يجثم فوق صدر الطفل، ابتسم وهو يُثبِّت يديه الصغيرتين برُكبتيه، ظنًا منه أنّه استطاع التغلُّب عليه أخيرًا، لكنّه لم يتوقَّع أبدًا أن يطير جسده بهذه الطريقة بعد إيماءة من وجه الطفل، هذه

المرة كان قريبًا من النافِذة المسدودة بألواحٍ خشبيةٍ تراصَت لتمنع كُلَّ ما هو في الخارِج من دخول الغُرفة، وكُل ما هو في الداخِل من الهروب، سقط أرضًا وتبِعه لوح خشبي، ترنَّح فانفصل عن أحد طرفيه وبقي مُعلقًا من الطرف الآخر، سامحًا لشعاعٍ ضئيلٍ من ضوء الشمس أن يتسلَّل إلى الغُرفة ملوثًا قدسية الظلام، كان الطفل يقف في طريق الشعاع الذي مسَّه فصرخ، كانت المرّةَ الأولى التي يصرُخ فيها بمثل هذا الألم، ابتعد عن طريق شعاع الشمس سريعًا وبخارٌ أبيضُ اللون يتصاعَد من جسده الضئيل.

تبادل يوسف وريم النظر سريعًا، للمرة الأولى منذ دخلا إلى هنا يفهمان شيئًا ما، وليس شيئًا عاديًا، إنّها نقطة ضعف هذا الكيان الشيطاني الذي يواجهانه، أدرك الطفل ممسوح الوجه الأمر في نفس اللحظة التي أدركاه فيها، وأيقَن أنّهما لو استغلا الأمر فستكون نهايته، لذلك تحرَّك سريعًا والبُخار الأبيض يتصاعَد من جسده الصغير، أشار بيده في حركة أفقية من الأسفل إلى الأعلى، وقبل أن يفهم أحدهما ما يحدث تشقَّقت الأرض من تحت ريم، صعدت مئات الأيادي السوداء المُتحلِّلة لتُمسِك بها، بدت الأيادي وكأنّها لا تنتهي، تتكاثَر ويزداد عددها بكثرةٍ غير مُبرَّرة، أمسكت بيديها وقدميها، وثبَّتتها في الأرض بقوةٍ، بينما تكالَبت عليها بقيّة الأيادي وهي تكتم أنفاسها وتضغط على جسدها في محاولةٍ لسحبها تحت الأرض، حاولت أن تصرُخ

لولا أن أحد تلك الأيادي كانت تسد فمها وتكتم نَفَسها.

راقَب يوسف ما يحدُث بأعينٍ مُتسِعةٍ هلعًا، أيقَن أنّه لو تأخَّر لكانت هذه نهايتهما، تحرَّك سريعًا نحو النافِذة، راقبه الطفل بأعين مليئة بالغضب، حرَّك يده في الاتجاه الآخر، بعيدًا عن النافِذة لكنّ يوسف كان يسبقه بخطوةٍ، قفز يوسف وأمسك بلوح خشبي بكلتا يديه في الوقت الذي أشار فيه الطفل بيده.

طار جسد يوسِف مُبتعدًا عن النافِذة لكنّه تشبَّث باللوح الذي انفصل وسقط أرضًا، سامحًا للمزيد من ضوء الشمس بالدخول إلى الغُرفة، هذه المرة كان الأمر أقوى من الطفل، الذي وقف في مجال الضوء صارخًا، كان يتحرَّك ببطءٍ محاولًا الابتعاد عن ضوء الشمس، بدأ جلده في الذوبان، البُخار الأبيض تصاعَد بشدةٍ لدرجة أنّه بدأ يملأ فراغ الغُرفة، شعرت ريم بالأيادي تذوي وتضعَف، نظر الطفل لها، بدأ جلد وجهه يتلوى ليرسِم ملامِحَ كانت ريم تعرفها جيدًا، ملامِح عادِل المسكين!

شعرت ريم بقلبها يكاد يقف وهي ترى طفلها المسكين يتعرَّض لهذا العذاب، تحاملت على ألمها وهي تقِف، تركت يدها المُصابة تتدلى بجوارها لتتأرجَح، ومدَّت يدها السليمة نحوه، مدّ يده نحوها وهو يقول: «ماما.. ساعديني»

كان صوت عادِل، صوت ابنها المفقود، كادت تلمسه لولا

صرخة يوسف التي ملأت فراغ الغُرفة وهو يعدو من خلفه مُمسكًا بقضيب معدني حاد المقدمة، غرسه في ظهر الطفل وراقبه وهو يخترِق صدره، صرخت ريم: «لا يا يوسِف.. إنّه عادِل!»

صرخ بها يوسِف وهو يرفع القضيب عاليًا مُستجمِعًا كُل قوته: «إنه ليس عادِل»

رفع القضيب بشكلٍ افقي، فبدأ الطفل ينزلِق عليه، غرسه في الأرض مائلًا قليلًا، تاركًا الطفل يتشنَّج ويرتجِف وهو ينزلِق على القضيب، قبل أن يستقِر جسده في مُنتصف الطريق، بلا حِراك!

تساقَط جلده على الأرض والبُخار الأبيض يزداد، نظر لريم وهو يقول بألمٍ: «كان يخدعكِ لتجذبينه بعيدًا عن ضوء الشمس»

توقَّع أن تشكره، لكن عينيها اتّسعت هلعًا وهي تنظُر إليه، نظر خلفه وهو يخشى أن يجد شيئًا آخرًا في انتظاره، لم يكُن مُستعدًا لخوض صراع جديد، كان مُرهقًا، لكنّها أشارَت إلى صدره وهي تقول: «هذا الرمز.. المحفور على صدرك»

نظر للرمز الذي حفره الطفل على صدره بحيرةٍ وهو يقول: «ما به؟ هل تعرفينه أيضًا؟ لكنكِ لا تتذكَّرين أين رأيتِيه؟»

قالت وهي تخرج كتابًا قديمًا من بين طيّات ملابسها بيدها السليمة، قلَّبت أوراقه إلى أن وصلت لورقةٍ بعينها، مدَّت

يدها بالكتاب أمام يوسِف وهي تُريه الرمز الموجود في الورقة، نظر لها بدهشةٍ.. كان نفس الرمز بالفعل، اتّسعت عيناه وهو يسألها: « ما هذا الرمز؟ ومن أين أتيت بهذا الكتاب؟»

نظرت له وهي تتألَّم قبل أن تقول: «سأجيبكَ على كُل شيء، لكن أولًا.. عليّ أن أفعل شيئًا ما»

نظرت للخلف وعيناها تترقرقان بالدموع قبل أن تُضيف: «لقد تذكَّرت كُلَّ شيءٍ!»

صمتت قليلًا، ثُم همست لنفسها: «كُل شيء!»

***

(١٠)

كان بجوارها في الغُرفة المُظلِمة، التي يسكُنها الهدوء ويُسيطِر عليها الصمت، إلّا من صوت همهماتٍ غيرِ مفهومةٍ تُردِّدها ريم ببطءٍ وهي تتحرَّك في الغُرفة دون أن تهتَم بإضاءتها، كانت تتحرَّك في الظلام وكأنّها ترى جيدًا، والحق يُقال أنّها كانت تفعل هذا بثقةٍ وبراعةٍ، أمسكت بيدها كتابًا قديمًا، انثنَت أطراف أوراقه واصفرَّت، تجعَّد غلافه الجلدي بشكل مُقزِّز، لكنّه - رغمَ كُلِّ شيءٍ - كان لا يزال صالِحًا للقراءة والتصفُّح.

وضعت الكتاب على الأرض وجلست بجواره، قلَّبت صفحاته حتى وصلت إلى صفحة بعينها، بدأت تجري بعينيها على كلماتها وحروفها دونما أيِّ اهتمامٍ يُذكَر، وهي تنظر إليه بطرفِ عينها بين الحين والآخر، إلى أن وصلَت لمُبتغاها، وضعت يدها على السطر وبدأت تقرأ في صمتٍ وهي تُحرِّك شفتيها بصمتٍ، نظرت من حولها نحو ركنٍ بعيدٍ، أتتها منه حركةٌ خافتةٌ، ابتسَمَت.. كانت قد أعدَّت عدتها وجهَّزَت كُل ما تحتاجه، لم تترُك مجالًا للخطأ!

وقفت وتركت الكتاب على الأرض، تحرَّكت نحو الركن المُظلِم، مدَّت يدها وبحثت قليلًا قبل أن تُمسِك بشيءٍ ما، انتفضت في قبضتها، لكنّها أحكَمت إمساكها، كانت دجاجةً مسكينةً تتشنَّج بين أصابِعها محاولةً الإفلات، منقارها

مربوط بقطعة قماش قديمةٍ جعلتها لا تستطيع التعبير عن نفسها بالنقنقة، عادَت بها ريم إلى مُنتصف الغُرفة، وقفت فوق الكتاب، فتحت قدميها فقبع بينهما، أمسكت بسكينٍ حادٍ ورفعت الدجاجة عاليًا، ذبحتها وألقت بالسكين جانبًا، ووقفت تحت سيل الدماء المُنهمِر لتتركه يسيل فوق رأسها وجسدها، ابتلَّ شعرها فالتصق في رأسها، وابتلَّت ملابسها فتمسَّكت بجسدها، بينما لم يبدُ هناك أثرٌ لقطرات الدماء فوق صفحات الكتاب، كان الكتاب يمتصها في شراهةٍ فلا تترك علامةً فوقه.

بدأت صفحاته تعتدِل وأطرافها تُفرَد، أصبح غلافه أملسًا بعد أن ودَّع تغضُّنه، وكأنّما رُدَّت فيه الروح.

شعرت ريم بالقوة قليلًا، عادَت للرُكن المُظلِم وأمسكت بأرنبٍ كان مُقيَّدًا كيلا يفر هاربًا، لكنّها لم تذبحه فوقها هذه المرة، بل قامَت بذبحه في وعاءٍ ضخمٍ، تركته ينزف دمائه وجلست بجواره تراقِب عملية النزيف بابتسامةٍ مُخيفةٍ، كانت عيناها زائغتان بشكلٍ غيرِ طبيعيٍّ، وكأنّها تائِهةٌ ضلَّت طريقها، حينما انتزعَت الحياة من جسد الأرنب المسكين، أمسكت ريم بقطعة من القُطن، كانت يومًا قطعة من كفن جُثّة دُفنَت حديثًا، اضطرَت ريم لنبش قبرها كي تأتي بها، غمستها في الدماء قبل أن تبدأ برسم بعض الرموز الشيطانية على الأرض، نجمة خُماسية هنا، وجه ماعِزٍ شيطانيٍّ هناك، بعض الحروف اللاتينية في مكانٍ آخر،

انتهَت بعد قليل فوقفت تنشج مجهودًا بذلته، راقبت ما قامَت به بابتسامة رضا، لم تعُد تحتاج الظلام.

احتاجَت لدماء برئ كجزء من ذلك الطقس الشيطاني، تحرَّكت نحوه وهمست له: «آسفة»

قبل أن تجرحه بدبوسٍ قديم في طرف اصبعه، تجعَّدت ملامحه في ألمٍ دام للحظةٍ، قطرت بضع قطرات على نفس القطعة القماشية وعادت لكتب ورسم بعض الرموز والتعاويذ الأخرى.

حان وقت إضفاء القليل من المرح على تلك الغُرفة المُظلِمة الكئيبة، فضَّت جوال جيشي طفق مُستندًا على الحائِط، تلوّت بداخله أشياء لم يظهَر كنهها، أمسكت بأولها وأخرجته، كان قطًا ضخمًا أسود اللون، مشوَّه الوجه جرَّاء حادث قديمٍ، سارت به وهو يتلوى بين يديها إلى أن وصلت لركنٍ من أركان الغُرفة، قيّدت القط المسكين في الحائِط بسلاسلَ معدنيةٍ قديمة كانت قد جهَّزتها من قبل لهذا الغرض تحديدًا، بعد أن اطمأنت لإحكام تقييده، صبَّت عليه سائِلًا رائحته نفَّاذة قليلًا، تلوى المسكين في ألم وقد أحرق هذا السائل جلده وعينيه، لكنّها أشعلت عود ثقابٍ وألقته عليه، كان هذا السائِل أحد السوائل القابِلة للاشتعال، تأجَّجت النيران وتصاعدت صرخات القطِّ المُحترِق لتملأ فراغ الغُرفة، تجاهلت ألمه وهي تتحرَّك بحركةٍ آليةٍ بطيئةٍ إلى الجوال، أخرجَت قطًا آخرًا مشوَّه الوجه كسابقه، وكرَّرت

نفس ما فعلت في ركنٍ آخرٍ، ثمّ قطٌ ثالثٌ وآخرَ رابعٌ، كانت الإضاءة الآن معقولة نوعًا ما، وصرخات القطط التي تحترِق أضفت جوًا لا بأس به عليها، جلست على الأرض، قلّبت صفحات الكتاب قليلًا إلى أن وجدت ما تبحث عنه.

وقفت مرةً أخرى وتحرّكت لتُمسِك بشيءٍ ما، وللمرة الأولى قبع هذا الشيء ساكنًا بين يديها، كانت قطعة من الفحم، وضعتها في نيران احتراق أحد القطط، الذي توقّف عن الحركة لكن النيران استمرّت بفعل السائِل القابِل للاشتعال، طفقت تنتظِر بصمتٍ ودون حراكٍ تقريبًا، كان هناك شيئًا خاطئًا فيها، وكأنّها.. وكأنّها فاقدةٌ تمامًا للتحكُّم بنفسها، قرقعت قطعة الفحم دلالةً على وصولها لمستوى لا بأس به من الحرارة، مدّت ريم يدها وأمسكت بها من وسط النار، دون حتى أن تهتَم بالنيران التي حرقت يديها فاحمرّت، عادت تقف فوق الكتاب وهي تخلع ملابسها تمامًا إلا من سروالها الداخلي، بدأت تُحرِّك قطعة الفحم التي تحوّلت إلى جمرةٍ مُشتعلةٍ فوق جسدها، تخط بها عزيمة نقشتها عن صفحات الكتاب، لم يبد علي وجهها أي مظهر للألم، رغم أن جسدها بدأ يرتعِد بشدةٍ، كانت الحروق تتكوّن تباعًا على جسدها دون أن تتوقّف، شعرت أن جسدها على وشك الانهيار، فأسرعت قليلًا، لم يعد هناك مكان في جسدها لم تحرقه الجمرة أو تسيل عليه دماء حروقها أو قطعة جلد ذائِبة، وقفت بجوار الكتاب غير قادرة على

الحركة، فتحت يدها فسقطت الجمرة أرضًا، قبل أن تنهار بجوارها وهي تغلِق عينيها، لم تعُد قادرةً على فعل شيء.

سكن جسدها فوق الأرض، كانت مُغلقة العينين وكأنّها فاقدةٌ للوعي، لكنّها فتحت عينيها بضعفٍ ووهنٍ حين شعرَت بالاهتزاز، كان المنزل بأكمله يهتز في عُنفٍ، وكأنّ زلزالًا ضخمًا يضرب المنطقة بأسرها، لكنّ أحدًا لم ير صفحات الكتاب وهي تتقطَّع وتدور حول نفسها سريعًا وكأنّ دوامةً تُحركها، امتلأت الغُرفة بالأوراق التي تدور في الهواء سريعًا، والمنزل بأكمله يهتزّ، سَمِعَت ريم أصوات من يركضون في الشارِع وبعضهم يصيح: «زلزال! زلزال!»

صحَّح له أحدهم قائِلًا: «لا! بل هو ذلك المنزل القديم.. سيسقط!»

من بين صفحات الكتاب بدأ شكل غير واضِح الملامِح يتكوَّن، راقبته ريم وعيناها تتسعان في خوفٍ، انتفض جسدها بسبب نبضة ألم لم تستطِع السيطرة عليها، بعد دقائِق توقَّفت الأوراق عن الدوران والطيران، لكنّ المنزل لم يتوقَّف عن الاهتزاز، وفوق ما تبقى من الكتاب الذي بدأت أوراقه تعود إليه فتلتحِم به وتلتئم إليه مرةً أخرى، وقف جدي أسود اللون مُخيف الهيئة، وقف على قائمتيه الخلفيتين كإنسان وهو يتأمَّل ريم الساقِطة أرضًا، قبل أن يقول بصوتٍ آتٍ من الجحيم: «لم يكتمِل الطقس بعد أيتها الفانية!»

قالت بصوتٍ خفيضٍ: «لكنّني فعلت كُل ما طُلِب مني»

سمعت ضحكةً عاليةً تأتيها من قلب الجحيم ذاته، قبل أن يركلها بقدمه وهو يقول: «ما زال هناك قربانًا لم يتم!»

اتسعت عيناها في خوفٍ وهي تقول: «لكنني قدمت دماء البرئ كما طُلِب مني»

أمسك بها الجدي من رقبتها، شعرت وكأنّ يده ذات الحوافر استطالت لتستطيع الإمساك بها، كانت قبضته قويةً على عنقها، شعرت بالهواء ينسحِب من رئتيها، حاولت التنفُّس.. لكن قبضته القوية منعت عنها الهواء تمامًا!

رفعها عاليًا في الهواء وهو يقول: «أنا فقط من يقول الشروط.. أحتاج للقربان كي أعيده من الموت، وإلا..»

وللمرة الأولى تشعر بالندم، صحيح أنها بعد وفاة والدها أهملت كُلَّ شيءٍ حتى حدث الطلاق بينها وبين محمود، عادت بعدها إلى هنا.. شقة والدها الراحِل، الذي مات وتركها وحدها في هذه الدنيا، بكته شوقًا وصرخت لوعةً، كانَت تعرف أنّه لو كان حيًا لما سَمَح لكُل هذا أن يحدُث، سيطرت عليها تلك الفكرة قليلًا، إلى وجدت في مكتبته كتابًا عن السحر، وهو الأمر الذي لم يكُن غريبًا، كونه قارئًا نهمًا ينهل من بحار المعرفة في كُل المجالات، بحثت بين صفحاته حتى وجدت عزيمة تُعيد الموتى للحياة، فكَّرت قليلًا قبل أن تبدأ في تنفيذها، لكنّها لم تتوقَّع أن يحدُث كُلُّ

هذا!

سَمِعَت صوته يناديها بهدوءٍ من خلف الجدي، نظرت إليه بأعينٍ على وشك البكاء، كان والدها يقف خلف الجدي، يبدو كطيفٍ شاحِبٍ، نظر لها في لومٍ عتابٍ، قبل أن يرفع ملابسه لترى الجرح الطولي الموجود في جسده، نظر إليها ثانيةً وهو يقول: «لقد ضحيت بنفسي.. وبجزءٍ من جسدي من أجلكِ، كنت قريبًا من الموت، بينما أنتِ ترفضين التضحية بطفلٍ من المُمكِن أن تُنجبي غيره بكُل سهولة! يا خسارة يا ريم!»

قاطع حديثهما عادِل الذي استيقظ من نومه وهو يحكُّ رأسه مُتسائلًا: «ما هذه الرائِحة يا ماما؟»

يبدو أن جُرعة المُخدِّر لم تكُن كافية!

صرخت ريم رغم شعورها بالألم: «عادِل!»

فَتَح عينيه عندما سمع صوت والدته الملتاع، فرأي الجدي الأسود يقف أمامه، ألقى بريم عبر فضاء الغُرفة، فاصطدمت بجسد قطٍ مُحترِقٍ وهي تسقط معه أرضًا، بينما أمسَك الجدي بعادِل الذي صرخ في رعبٍ وهو يحاول الهروب، ركل المسكين الهواء بقدميه وقلبه الصغير يكاد يتوقَّف خوفًا وفزعًا، أمسك الجدي بالسكين المُلقى أرضًا وذَبَح به عادِل في حركة سريعة، صرخت ريم: «عادِل!»

نظر إليها الفتى وهو يمدُّ يده في رجاءٍ، مدَّت يدها نحوه،

لكنَّ المسافة فرقتهما عن بعضهما، انتفض جسده قليلًا وعينيه تتسعان في غير تصديق، صدر صوت خوارٍ من فمه قبل أن يسكن بين يدي الجدي الذي ترك دمائه تسقُط على الكتاب الذي لمعت صفحاته في شراهةٍ واستعادت الكثير من بريقها وحيويتها، قبل أن تتحوَّل الكتابة الموجودة بها من اللون الأسود إلى اللون الأحمر القاني.

نظر إليها الجدي وهو يقول: « والآن.. اكتملت الطقوس»

ركل جُثّة الفتى بقدمه في قسوةٍ وهو يقول: «وقُبِل القُربان!»

تحاملت على نفسها وهي تحتضِن ابنها، صرخت في لوعةٍ وألمٍ وهي تبكيه، كانت تعرِف يقينًا أنها السبب فيما حَدَث، كانت تعرف شرط وجود قربانٍ بشريٍّ من دماء الشخص المُراد إعادته من الموت، لكنّها فكَّرت في تفويت هذا الشرط وعدم القيام به، ظنًا منها أن بإمكانها فعل هذا، والآن ها هي قد خَسِرَت ابنها الوحيد!

صرخَت شعورًا أقسى من الموت، اهتز المنزل مرّةً أخرى من قوّةِ صرخاتها، نظر إليها الجدي وهو يقول بصوته الشيطاني: «لا تخدعيني مرةً أخرى أيتها الفانية.. لا أحد يخدعني!»

تلوَّت شفتاه لتتحوَّل لابتسامةٍ قبيحةٍ وهو يقول: «عقابًا لكِ على محاولتك البائسة لخداع سيّد الظلام، لن يعود من

ابتغيتِ عودته من الموت، لكن.. ولأنّني شيطانكِ الرحيم..
لن أقتلك عقابًا لكِ على ما حدث، سأمنحكِ فرصةً أخرى
للحياة، حاولي أن تتمتّعي بها»

اختفى من أمامها وتركها وحيدةً مع جسد عادِل الفاقِد
للحياة، بحثت بعينيها عن شبح والدها الذي رأته من قبل،
لكنّه لم يكُن موجودًا، نظرت لطفلها الذي فارَق الحياة وهي
تُدرِك أنّها قد خسرت كُلَّ شيءٍ، أطلقت صرخةً أخرى وهي
تسمع صوت ضحكاتها الشيطانيّة تتردَّد في فراغ الغُرفة
قبل أن تفقد الوعي!

***

انتهَت من حديثها، راقَبت عيني يوسِف المُتسعتين في
انكارٍ وهو مُستنِدٌ إلى الحائِط، همس وكأنّه لا يُصدِّق ما
ينطِق به: «أنتِ؟ أنتِ السبب في وفاة ابنكِ؟»

قبل أن يستوعِب الأمر وهو يقول: «لحظة! لحظة! إذا كان
ابنكِ قد قُتِل من قبل، فلماذا أنتِ هنا؟»

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تنظر ليدها المكسورة، قبل
أن تقول في انكسارٍ: «لا أعرِف، أعتقِد أن ذلك الشيطان
خدعني لأدخُل إلى هنا من أجل شيء ما»

فكَّر قليلًا، قبل أن يفطن للأمر، قال لها مُفسِّرًا: «يبدو
أن عقلكِ رَفَض تصديق الواقِع، فنحى تلك الحقيقة جانبًا،
وترك لكِ خيالًا تعيشي فيه، خيالًا لا يزال عادِل يعيش

ويتنفَّس ويتحرَّك فيه، لهذا ظنَّ كُل من حولي أنكِ جُنِنت!»

بدت علامات الاستيعاب على وجهها وهي تقول: «لهذا جُن محمود حين أخبرته بأمر مدرسة عادِل! وكاد يجن غضبًا حينما سألته لماذا لا يُريد أن يتحدَّث إليه! لهذا اتهمني بالجنون عندما أخبرته أن عادِل فُقِد مني! كان الجميع يعرفون أن عادِل مات إلا أنا!»

قال يوسف: «لم يتحمَّل عقلكِ الحقيقة.. فخدعكِ! وجعلكِ تعيشين في وهمٍ!»

بدت علامات الغضب على وجهه قبل أن يصرخ بها قائلًا: «مررنا بكُل هذا من أجل وهم في رأسكِ! تبًا!»

نظرت له بخوفٍ، خَشيَت ردّة فعله، عضّ على شفته السُفلى حتى أدماها، أخد صدره يعلو ويهبط في سُرعةٍ وهو ينظُر لها بغضبٍ، لكنه لم يتحرَّك من مكانه، قال في غضبٍ: «يكفيكِ ما أنتِ فيه الآن.. ما تعيشينه..»

صمت قليلًا قبل أن يُضيف: «أقسى من الموت!»

تحامَل على نفسه وهو يقول: «لنخرُج من هذا المكان اللعين»

مدَّت له يدها لكنّه مرَّ بجوارها وتجاهلها تمامًا، استندت على يدها السليمة وهي تقف، استعانت بالحائِط في ألمٍ، خرجت خلفه فوجدته واقفًا في مُنتصف البهو دون حِراك،

سألته: «يوسِف.. ما الذي حدث؟»

تحرَّك يوسف ببطءٍ، مُبتعدًا عن مجال رؤيتها، سامحًا لها بالرؤية، شهقت في رعبٍ وهي ترى الجدي الأسود يقف أمام باب القصر وهو ينظر لهما بأعينٍ تتقد شررًا، تراجعت نحو الغُرفة مرةً أخرى، وهي تهز رأسها في رفضٍ، سمعَت صوت خطواتٍ ثقيلةٍ بجوارها، نظرت فوجدت النساء البدينات، أم قويق وتابعاتها تصعدن السلم من البدروم في بطءٍ، صرخت: «يوسِف.. البدروم!»

التفت يوسِف ورآهُن، أسرع مُتراجعًا نحو الغُرفة بدوره، أغلقا الباب، استندت ريم إلى الباب وهي تبكي، يرتجِف جسدها في خوفٍ وفزعٍ، بينما تحرَّك يوسف سريعًا ليبدأ في وضع كُل ما تطاله يديه خلف الباب، في محاولةٍ لغلقه، كوَّم بعض الأشياء كيفما اتفق في عشوائيةٍ خلف الباب، بكت ريم وهي تقول: «والآن؟ ماذا؟»

تلفَّت يوسف حوله في يأسٍ تامٍ، لا يعرِف ماذا سيفعل، فكَّر في القفز من النافِذة لكنّه تراجَع عن فكرته، لا يضمن ما الذي ينتظرهما بالخارِج، ولا يستطيع المُجازفة بأنّ الجدي أو النساء البدينات يخشين الشمس كالطفل عديم الملامِح!

ابتلع ريقه في صعوبةٍ، هزَّ رأسه في يأسٍ والدموع تشق طريقها لعينيه، تنهَّد وهو يقول: «انتهى كُل شيء يا ريم..

انتهى كُل شيء»

رأي عينيها تتسِع وهي تنظُر لشيءٍ ما خلفه، نظر يوسف خلفه ورآه، قال بلهفةٍ: « الكتاب!»

***

(١١)

أمسك يوسِف بالكتاب وهو يعطيه لريم في سُرعةٍ، سمعا صوت طرقات النساء البدينات على الباب، طرقات رتيبة بطيئة، لكنها كذلك قوية، نظرا للباب الذي يهتز في عُنفٍ، وكومة الأشياء التي وضعها يوسِف خلف الباب وهي ترتعِد، عرف كلاهما أنّها لن تصمُد طويلًا، كما أيقنا أن الباب على وشك الانهيار، وَجَب عليها التصرُّف سريعًا، نظرت ريم للكتاب الذي قبع ساكنًا في يدها السليمة قبل أن تنظر ليوسف بغير فهم، لم تفهم لماذا أعطاها الكتاب، بادلها النظر بنفاذ صبر وهو يقول: « أرِني الصفحات التي استخدمتها في محاولتك البائِسة لإعادة والدكِ من الموت!»

وضعت الكتاب في يده، وبدأت تقلِّب فيه بيدها السليمة، إلى أن وصلت لصفحةٍ مُعيَّنةٍ، بدأ يوسف يتأمَّل المكتوب فيها، كان هناك الكثير من الرموز الشيطانية والعديد من الكلمات اللاتينية التي لم يفهمها، لكنّه - ولدهشتها - قلب الصفحة وبدأ يمر بعينيه سريعًا فوق السطور، إلي أن وصل لما بدا أنّه يبحث عنه، صفحةٌ فارِغةٌ تمامًا، وقف أمامها وهو يقول: «هذه هي الحل!»

نظرت للصفحة الفارِغة في بلاهةٍ، قبل أن تنظر للباب الذي أوشَك على الانهيار وهي تقول: «أتعتقِد أن هذا وقت

جيد للمزاح؟»

نظر لها بغضبٍ وهو يقول: «أنا لا أمزَح، الحل في هذه الصفحة، علينا فقط أن نجد طريقة لنُظهِر ما كُتِب فيها»

سألته بشكٍ: «وكيف تعرِف أن هناك ما كُتِب فيها؟»

هزَّ كتفيه وهو يقول: «مُجرَّد تخمين! هل لديكِ تخمينًا أفضل؟»

فكَّرت طويلًا قبل أن تقول: «الدماء!»

فَهِم ما ترنو له، رفعت يدها المُهشَّمة بالسليمة، ضغطت أحد جروحها فانبثقت قليلٌ من الدماء خارِجه، تركت دمائها تنزِف فوق صفحات الكِتاب، التي امتصتها في شراهةٍ دون أن تترك أثرًا، لكن شيئًا لم يحدُث، نظرت ليوسف بحيرةٍ، تنهَّد وهو يقول: «يبدو أن دمائك لا طائِل منها مع هذه النُسخة»

قالت: «لكن الأمر نَجَح من قبل في النُسخة السابِقة!»

قال: «لأنها كانت تخصَّك، أما تلك.. فليست لكِ»

لم تظهر أي علاماتِ فهمٍ على وجهها، ظلَّت تطالعه في بلاهةٍ تُحسَد عليها، شعر أنّه مُضطَر لتوضيح الأمر، فقال: «تستجيب كُلُّ نُسخةٍ لدماء صاحبها، لن تعمَل تلك النُسخة سوى بدماء الشيطان الموجود بالخارِج

نظرت للباب الذي بدأ يتشقَّق، وهي تقول: «هل لدينا

فُرصةٌ في الحصول على بضع قطرات من دمائه؟»

قال في توتُّر: «فرصنا في الموت أكبر!»

ظهر اليأس على وجهها للحظةٍ قبل أن تقول: «يوسِف..»

نظر لها بلهفةٍ وهو يقول: «أرجو أن تكونِ قد وجدتِ حلًا، وإلا..»

نظر ليد إحدى البدينات وهي تمتد من شقٍ طال واتسع، كانت تتحرَّك في وحشية محاولةً الإمساك بأي شيء تطاله يدها، قبل أن يُضيف: «فنحن هالكين!»

شعرت بالتوتُّر، فصمتت، أومأ لها برأسه نحو الباب، نظرت إلى الباب الخشبي الذي جاملهما بما فيه الكفاية، لكنّه أوشك على الانهيار، ازداد توتُّرها وقلقها، ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تقول: «لا شيء»

صاح بغضبٍ: «ريم.. ليس لدينا وقت لهذا الهراء!»

نظرت للباب مّرةً أخرى قبل أن تقول: «يستجيب الكتاب لصاحبه.. أليس كذلك؟»

كاد يوسِف يبكي وهو يقول: «قسمًا بالله لا نملك وقتًا للمقدمات كذلك!»

سارت حتى وصلت للطفل عديم الملامِح المُعلَّق فوق القضيب المعدني المغروس في الأرض، كانت دماؤه السوداء اللزجة ما زالت تسيل من جرحه، وضعت الكتاب

تحت جسده، فسقطت عليها بضع قطرات دماء، هذه المرة لم تمتصها الصفحات، لكنها تلوَّت فوقها قبل أن تتحوَّل لكلمات غير مفهومة، وكلّما زادت الدماء.. زادَ وضوح الكلمات، قرأ يوسف ما خُطَّ فوق الصفحة، تهلّل واتسعت أساريره، لكن الباب انهار، وكومة الأشياء القديمة التي وُضعَت خلف الباب لم تعُد تتحمَّل أكثر من ذلك، بدأ يوسِف يقرأ الكلمات بصوتٍ عالٍ، سَمِع صراخ الجدي من الخارِج، ورأى ملامِح النساء البدينات التي بدأت بدخول الغُرفة تباعًا وهي تتلوى بين الغضب والألم، استمرَّ في القراءة وهو يتراجَع للخلف، لم يتوقَّف، تدفَّقت الكلمات من بين شفتيه، مدَّت النساء أيديهن نحوه محاولات الإمساك به، لكنّه تراجَع للخلف، كانت ريم تُراقِب ما يحدُث وهي تتراجَع بدورها، استمر يوسِف بترديد الكلمات دون توقُّف، اصطدَم ظهره بالحائِط البارِد، انتهى من قراءة العزيمة التي ظهرت أمامه، لكنّ شيئًا لم يحدُث.

كانت أقرب النساء البدينات أمامه الآن، رفعت يدها عاليًا وهي تزأر في وحشيّةٍ حيوانيّةٍ

أغلقا أعينهما، انتظرا أن تقبِض عليهما تلك النسوة، أو حتى تنهَش جسديهما بأظافرهن، لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدُث، شعرا بنسمةٍ من الهواء تحتَل الغُرفة، ارتجَف جسداهما، قبل أن يفتح يوسِف عينيه، شهق في دهشةٍ أجبرت ريم على فتح عينيها بدورها، كانت الغُرفة مليئة

بالأطفال الصِغار، بدت وجوههم مألوفة لريم التي صرخَت: «المفقودين»

كان الأطفال الصِغار يدفعون السيدات بعيدًا عنهم، تحاول النساء مقاومتهم، لكن الكثرة انتصَرَت، انقسم الأطفال لأقسامٍ عديدةٍ، تولى كُلُّ قسمٍ منهم مسؤولية سيدة من البدينات، يدفعونها بعيدًا عن ريم ويوسِف، اللذان تقدما للأمام نحو الباب المُهشَّم، خطا يوسِف فوق كومة الأخشاب المُتهالِكة وهو يخرُج إلى بهو القصر، كان يعتقِد أن الجدي أيضًا قد تمَّ امساكه أو القبض عليه، لكنه كان ساقطًا فوق الأرض ينتفِض في ألمٍ، تبادلا النظر قبل أن يبتسِم كُلُّ منهما إلى الآخر، لكنهما سمعا صوت خطوات خافِت من خلفهما، نظرا للخلف سريعًا خوفًا من تحرُّر إحدى البدينات من قبضة الأطفال، لكنّهما وجدا مفاجأةً في انتظارهما!

كان عادِل ونورهان يقتربان منهما، يُمسكان أيدي بعضهما البعض، شهق يوسف وهو يقول: «نور!»

ركض نحوها بلهفةٍ، تركت يد عادِل وأسرَعَت نحو والدها، الذي التقطها وضمَّها بين أحضانه وهو يدور بها في حنانٍ، أخذ يُقبِّلها ويتأمَّل ملامحها وهو يقول: «لا أصدِّق يا ابنتي.. لقد عُدتِ»

اتسعَت ابتسامتها وهي تقول: «أوحشتني يا أبي»

احتضنها وهو يُقبِّلها مرةً أخرى قائلًا: «وأنتِ أكثر!»

بينما تجمَّد الزمن بالنسبة لريم وعادِل، وقفا أمام بعضهما البعض دون حِراك، يتأمَّل كُلا منهما الآخر بتعبيراتٍ مُختلفة ومشاعِر مُتضارِبة، همست ريم: «أوحشتني!»

سالت دمعة مع عين عادِل اليُسرى وهو يقول: «هُنت عليكِ!»

صرخت في سُرعةٍ: «لم تهُن أبدًا!»

قال في لومٍ وعتابٍ: «لو لم أهُن، لما كُنا في هذا الموقف أبدًا!»

سقطت على ركبتيها وهي تقول: «كُنت مُضطرة!»

قال وهو ينظر لها: «مُضطرَّة؟ اخترتِ أن تقدميني كقربان!»

فتحت يديها له وهي تقول: «اشتقت لأبي، لم أستطِع الاستمرار بدونه»

تراجَع خطوةً للخلف وهو يقول: «وأنا؟ ما ذنبي!»

مدَّت يدها نحوه وكأنها تحاول الإمساك به، لكنه كان بعيدًا عنها، قالت وهي تبكي: «لم يكُن لك أي ذنب.. الذنب ذنبي أنا!»

قبل أن يجيبها سمعا صوت صرخة شيطانية ترج القصر بأكمله، نظر الجميع نحو مصدر تلك الصرخة، كان الجدي قد وقف على قائمتيه الخلفيتين وهو يصرخ في وحشيةٍ،

اقترب منهم في سُرعةٍ وهو يزأر، تبادل عادِل ونور النظرات قبل أن يسرعوا نحوه وهم يمسكون بيديه، أمسك كُل منهما بيدٍ وجرَّاه نحو الخلف، حاول مقاومتهما لكن العزيمة التي ألقاها عليه يوسف جعلته ضعيفًا غير قادرًا على المقاومة، ثبتَّاه إلى أحد الحوائِط قبل أن تقول نور لوالدها: « هيا.. لا نملك الكثير من الوقت»

صاح عادِل بوالدته: «هذه هي فرصتنا الوحيدة»

تلفَّتا حولهما، لكن أيهما لم يجد شيئًا يصلح لإنهاء الأمر، أسرع يوسف عائدًا إلى الغُرفة، أمسك بقضيب معدني قصير، وهو ينادي ريم: «ريم.. إليكِ هذا»

ألقى به في الهواء، تعلَّقت به أعين الجميع وريم تُمسِك به قبل أن تصرُخ مُطلقةً كُل الألم الذي اعتمر بداخلها فضاقت به نفسها، ركضت نحو الجدي قبل أن تغرس القضيب في قلبه، صرخ بألمٍ وجسده يتوقَّف عن الحركة، وفورًا سقطت كُل النساء البدينات أرضًا بلا حراك، وكأن أرواحهن كانت مُعلقةً بروحه، بدأ الأطفال يختفون وسط الظلام، بينما بدأ القصر يهتز من حولهم جميعًا.

نظر يوسف لسلم الدور العلوي وهو يتصدَّع قبل أن ينهار، وتمثال الأسد الذي انشقَّ إلى قسمين ويسقط أرضًا، قبل أن يقول في خوفٍ: « يجب أن نخرُج من هنا»

ركضوا جميعًا نحو باب القصر، أمسك يوسف بمقبض

درفة من درفتيه، بينما أمسكت ريم بالأخرى، فتحا الباب فاستجاب لهما، ركضا إلى الخارِج والقصر يتصدَّع من خلفهما، تساقطت أجزاء من السقف وانهارت بعض الحوائِط، كادا يركضان عبر الحديقة الأمامية إلى الخارِج لولا أن عادِل ونور لم يخرُجا من القصر، نظرا لبعضهما بدهشةٍ قبل أن يصيح بهما يوسف: «هيا بنا.. يجب أن نخرُج من هنا قبل فوات الأوان»

هزَّ عادِل رأسه وهو يقول: «لا نستطيع الخروج من القصر، لقد انتهَت حكايتنا»

قالت نور وهي تبكي: «أما أنتما.. فلكل منكما فرصة في بدء حكاية جديدة»

نظر لها يوسف بغير تصديق، ارتعَد انسان عينه والدموع تهاجمه من كُل حدب وصوب، قبل أن يركض إلى داخل القصر، احتضن ابنته وهو يقول من بين دموعه: «لقد عشت بما يكفي دونكِ، لن أتركك مرةً أخرى يا نور، إذا ما كان الموت هو قدري.. فأهلًا بالأقدار»

احتضنته نور وهي تبكي في حضنه، فَهِمت ريم ما يحدُث، لن يخرُج الأطفال من هنا لأنهم مُجرَّد أرواح مسكينة عالِقة، ركضت بدورها نحو القصر الذي كاد ينهار تمامًا الآن، كادت قطعة من الصخر تسقط فوق رأسها لولا أن تفادتها في صعوبةٍ وهي تسقط أرضًا، دخلت إلى القصر، احتضنت

عادِل الذي استكان بين أحضانها في استسلامٍ، نظر لها يوسف بدهشةٍ فقالت: «يكفيني ما حدث، أنا السبب في كُل هذا»

وقفت وهي تتجه نحوه قائلةً: «أما أنت.. فلا ذنب لك»

أمسكت به ودفعته خارِج القصر بكُل ما أوتيت من قوةٍ، وهي تصرُخ: «لن يموت أي شخص آخر بسببي، أنا آسفة يا يوسف.. سامحني!»

سقط أرضًا خارِج القصر، اتسعت عيناه في دهشةٍ وهو يراها تحتضن الطفلين، بكت وهي تقول: «أنا آسفة»

انهار القصر تمامًا فوق رأسها، كاد يوسف يركض إليه لولا الأطلال التي بدأت تتساقَط أرضًا وعاصِفة الغبار التي ملأت الجو لدقائِق قليلة قبل أن تصفو ليرَ القصر وقد تحول إلى أطلالٍ مُهدَّمةٍ لا حياة فيها!

شعر بأحدهم يُمسِك به وهو يقول: «هل أنت بخير؟»

تلفَّت حوله، كان أهل المنطقة وسُكَّان الشارِع يقفون من حوله، يبتغون الاطمئنان عليه، من الواضِح أن صوت انهيار وتصدُّع القصر أخرجهم من بيوتهم وأتي بهم إلى هنا، بكى نور مرةً أخرى وهو يرى الناس تضرب كفًا بكفٍ.

سمع أحدهم يقول: «انهار القصر الملعون!»

صاح آخر: «حمدًا لله.. علها النهاية!»

تعالَت أصوات وهمهمات الجمع من حوله، لكنه لم يسمَع منها كلمة، كانت عينيه مُعلقتان بهذا الجدي الأسود الذي ظهر من وسط الأطلال وهو ينظُر له، التوت شفتيه بابتسامةٍ ساخرةٍ وهو يخرج من بين الأطلال المُهدَّمة ويبتعِد في بطءٍ.

شعر بيدٍ قويةٍ تُمسِك بكتفه، نظر للخلف فوجد رجلًا تملأ الدموع عينيه، قال الرجل وهو ينشُج: «لقد رأيتها.. رأيتها وهي تحتضِن عادِل، رأيتهما قبل أن ينهار القصر بلحظاتٍ قليلةٍ، لكنني لم.. لم أستطِع التدخُّل، لقد تأخَّرت عليهما.. والآن.. ضاعا مني»

انهار في البكاء قليلًا قبل أن يقول من بين دموعه: «للأبد»

عَرَف يوسف هويته حتى وإن لم يحتَج للنطق بها، احتضنه وربت عليه وهو يقول: «هوِّن عليك يا محمود»

رفع محمود رأسه وهو يقول: «هل.. هل تعرفني؟»

هزَّ يوسف رأسه وهو يقول: «لقد حدَّثتني ريم عنك كثيرًا»

دفن محمود رأسه في صدر يوسف منهارًا في بكاءٍ لا يستطيع التوقُّف عنه، عاد يوسف لينظُر نحو الأطلال بحثًا عن الجدي.. لكن الأخير كان قد اختفى دون أن يترك أثرًا!

***

تمَّت بحمد الله